السنة التاسعة (ربيع الاول سنة ١٣٦١ – ابريل سنة ١٩٤٣م) العدد الرابع

صحيفة دار العلوم

م (ح ١٩٣٤)

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	———	٢٠ قرشاً
خارج القطر	———	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	———	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

صفحات مجهولة

من تاريخ العرب فى أوربا (١)

للأستاذ عمر الدسوقى

من تلك الرمال الهادئة الوادعة ، وتلك البقاع النائمة الهاجعة ، وهاتيك القفار التى تندر فيها نسمات الحياة ، دوت صرخة الحق والدنيا تغط فى سبات عميق من الجهل والظلم ، والرق والعسف ، فارتجت أطرافها من تلك الصيحة المدوية ، وزلزلت عروش غاصت أقدامها فى بطون القرون . وبسطت أذرعها على جنبات البسيطة ، وأخذ ذووها يتساءلون : أى داهية دهياء انصبت على الأرض فمادت ، وأى قوة هزت أعوادها فساخت ؟ !!

أجل ! ظهرت بين وهاد مكة وشعابها عصابة عمر الإيمان أفئدتها ، واهتدت بهدى الله وقرآنه فحطمت رمور السخف العقلى والانحلال الخلقى ، وآثرت أن نبعث فى العالم نفحة من قوة يقينها ، وتبدد دياجير الجهل بشعلة إيمانها ؛ فاتحدت بعد أن كانت أباديد ، وانساحت فى أرجاء المعمورة صفوفا متراصة . مثل أركان الجبروت والطغيان ، وتنصف للحق من البغى والعدوان .

أرأيت السيل الجارف كيف يكتسح مايعترضه من جلاميد الصخر وباسقات الأشجار ، وكيف ينساب فى الأودية فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ؟! هؤلاء هم العرب بعد أن دخل الاسلام قلوبهم فاستل منها الإحن والأحقاد ، كانوا حرباً على الممالك الظالمة والقوى الغاشمة ، وبلسما عذباً على من مل قيود الذل وملته فانعشت فؤاده المكلوم ، وأحيت موات نفسه الكسيرة ، فارتدت إليه حريته ، وحفظت حقوقه وسلمت عقيدته ! !

---

(١) محاضرة ألقيت فى نادى دار العلوم فى ١٨ من فبراير سنة ١٩٤٣

أيها السادة !

كلنا يعلم ولاريب كيف غرس العرب فى شبه جزيرة أيبيريا تلك الدوحة الفينانة التى ظلت تنفح العالم بظلها الوريف وثمرها الشهى ثمانية قرون . أعنى الاندلس، تلك الأغرودة العذبة فى ملحمة تاريخنا المجيد . ولا أريد أن أدخل معكم فى تفاصيل فتحها فذلك مرقوم فى سجلات التاريخ ، ولكن حديثى سيتشعب ثلاث شعب : إلى أى مدى وصل توغل العرب فى أوربا ، وما الأثر الذى خلفوه فى عقليتها وآدابها وفنون حياتها ؟ وما الأسباب العامة التى عصفت بتلك الدوحة الشامخة فاجتثتها لعل فى ذلك تذكرة ، ونحن فى حاجة إلى الذكرى ولاريب .

فتح السمح بن مالك الخولانى والى الاندلس من قبل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز مدينة أربونة عبر جبال الأندلس وهى من مدن فرنسا سنة ٧١٩ ثم والى زحفه حتى قرع أبواب طولون وضيق عليها الحصار وكادت تفتح فى يده لولا أن فاجأه مدد العدو فاشتد القتال وحمى وطيسه ويقول المؤرخ الفرنسى جوزيف رينو (١) « ولما تلاقى الجمعان خيل أن الجبال يلاقى بعضها بعضا وكانت المعركة من أهول مايتصور العقل — وكان السمح يظهر فى كل مكان وسيفه ينطف دما وهو يشعر عساكره بقوله وفعله ، وكان كالفحل الهائج الذى لايرد رأسه شىء ، أو كالاسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد فى وجهه فما هو إلا أن أصابته طعنة خر بها صريعا عن جواده ففت ذلك فى عضد المسلمين ونكصوا على أعقابهم يتولى أمرهم عبد الرحمن الغافقى وأرجعهم إلى الاندلس » . وقد حاول الفرنسيون الثورة مرارا على العرب بعد هذه الحادثة ، ولكن تحصين أربونة على يد السمح (الذى لايزال له شارع يعرف باسمه فى تلك المدينة) وقف فى وجوههم حجر عثرة . ثم تمكن العرب فيما بعد من تمكين أقدامهم ببلاد الغال فى إمارة عنيسة الكلبى ، ففتح قرقشونة ، وأحسن تدبير البلاد ونظم الخراج والجزية ، وخلفه (حديدة) الذى استطاع أن يدفع بالغزو حتى كليرمون ويدخل مقاطعة دوفينى Dauphiné وعاصمتها

(١) ولد سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٦٧ فى كتابه غزوات العرب فى فرنسه وسافوى وبيلمونت وسويسرا :

جرينوبل ، ويفتتح مدينة ليون وبلاد برجونيا إلى وادى الرون . وشمل الغزو Maçon التى تبعد عن باريس ٤٤١ ك م . ثم أوغلو حتى وصل إلى ديجون Digon ودمروا كما يقول رينو دير Bize . ويذهب رينو إلى أنهم وصلوا الى مقاطعة Tranche-Conté وعاصمتها بيزانسون ، ويقول ليس فى هذا شيء لايقبله العقل ولاسيما فيما يتعلق بمقاطعة فرنش كونتى التى لاتزال بها أسماء عربية وآثار كثيرة تدل على أنهم دخلوها .

ومن ثم تولى امارة الاندلس القائد العربى الكبير والتابعى الجليل عبدالرحمن الغافقى فاكتسح بجيوشه جبال البرانس حتى وصل إلى بوردو وأخذها عنوة فاستنجد دون اكتانية بشارل مارتل أمير فرنسا فأخذ يعد العدة للقائهم وقد وصل العرب حتى مدينة تور على نهر اللوار وأخذوها عنوة بمشهد من جيش شارل مارتل . ثم تلاقى الجمعان بين تور وبواتييه واشتد اظى المعمعة وأبلى فيها عبد الرحمن بلاء حسنا إلى أن قتل ففر العرب واحتموا بمدينتهم الحصينة أربونة .

ومن أهم العوامل التى خذلت العرب فى هذه الموقعة التى يسمونها بلاط الشهداء حرصهم على الغنائم التى أحرزوها قبل المعركة وكان عبد الرحمن قد هم بأمرهم أن يتركوها حتى لاتبقى قلوبهم مشغولة بها عن القتال ، ولكن توجس خيفة أن يكسر ذلك من قلوبهم فتفتر عزائمهم ، فاذن لهم بحفظها وهو كاره فجعلوها وراء المعسكر وأعينهم تتطلع إليها . وقد علم الفرنج ذلك فحولوا جزءاً من جيشهم ليهاجم المعسكر وما فيه من الغنائم والأسلاب فارتدت العرب اليه ولم يصمد فى الميدان من يقاتل السواد الاعظم من جيش شارل مارتل فكانت الطامة الكبرى . ١١٥ هـ و ٧٣٣ م .

وقد بالغ مؤرخو الفرنجة فى وصف هذه الموقعة ونتائجها وقالوا لولاها لانتشر الاسلام ورفرف العلم العربى على أوربا جمعاء كما هولوا فى بطولة شارل مارتل لأن جيش العرب على زعمهم كان نصف مليون أبيد منه ثلاثمائة وخمسون ألفا من الجنود الأبطال . وهذا ولا ريب ظاهر المبالغة لأن جحفلا هذه عدته من العسير جمعه ،

وإذا جمع فمن الصعب ضبطه وتموينه فى تلك القرون الخوالى . وقالوا انه سمى بمارتل أى المطرقة منذ ذلك الوقت .

وقد حاول الفرنسيون أن يخرجوا العرب من أربونة بعد ذلك فصمدت لهم وشغل شارل مارتل فعاود العرب الكرة واحتلوا مدينة ليون من جديد وكل مقاطعة بروفانس الى أن أجلاهم عنهــا وعن أربونة بيبين القصير ابن شارل مارتل سنة ٧٥٩ م

وهنا يظن كثير من الناس أن تاريخ العرب بفرنسا قد انتهى ويحارون فى تعليل كثير من الآثار التى وجدت فى جبال الألب وسويسره والبروفانس . وسنبين فيما يلى عهداً أطول وأزهر للعرب فى فرنسا .

استعمل العرب الاساطيل منذ جاء إلى الأندلس الأمير عبد الرحمن الأموى الملقب بالداخل وهاجموا فرنسا من الجنوب وكان نزولهم فى المكان المعروف حتى الآن بـ Antibe أى عين الطيب بالغرب من نيس التى يقول لها العرب (نيقية) كما مهدوا لذلك بالاستيلاء على سردينيا وكورسيكا ، ويوجد بسردينية حتى الآن فى ولاية غاليارى hagliari قرية أصل سكانها من العرب وقد دخلوها سنة ٨٠٦ فى حكم شارلمان ، وفى هذه الآثناء جرت حادثة مهمة أدت إلى الاستيلاء على جزيرة كريت ، وذلك أن أهالى ربض قرطبة ثاروا على الحكم أميرهم فسار إليهم برجاله وحرسه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونفى بقية السيف وكانوا زهاء خمسة عشر الفا فأركبهم البحر فدخلوا الاسكندرية عنوة بيد أن حاكمها أجلاهم عنها فنزحوا الى جزيرة كريت بقيادة أبو حفص عمر البلوطى سنة ٢٥٠ هـ ، ٨٢٥ م وبقوا فيها ١٣٥ سنة ولكن غلب عليهم الروم وتنصر معظمهم وفر من فريدينه .

أما صقلية فكانت من أوائل البلاد التى احتلها العرب وقد غزيت أول الامر هى وكريت فى عهد معاوية بن أبى سفيان وثانيا سنة ٢١٣ هـ على يد قاضى القيروان أسد بن الفرات واستتب بها أمرهم وشادوا بها المساجد الكثيرة حتى روى ابن حوقل الرحالة الشهير أنه رأى فى بالرم عاصمتها عشرة مساجد على مقدار رمية

السهم ودام ملك المسلمين بها الى سنة ٤٦٤ حينما غلبهم عليها الفرسان النورماندیون بيد أن الأسلام بقى بها بعد ذلك وكان ملوكها المسيحيون يحبون العرب ويثقون بهم وقد ازدهرت الثقافة الاسلامية العربية خصوصا فى عهد فردريك الثانى امبراطور جرمانية وملك صقلية الذى كان كل شيء فى قصره عربيا من نساء وجوارى وحاشية بل كان وزراؤه من المسلمين وأحب اللغة العربية وتزيى بزى العرب وفى عهده كان أول اتصال الانجليز بالعرب فترجم روبرت الانجليزى القرآن لأول مرة

ايطاليا :

ومن صقلية أغار العرب على ايطاليا قال المسعودى فى مروج الذهب : ان المسلمين جاوروا اللباردیين وغلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل بارى (باره) وطاريتتو ثم قال ان مدينة تارنتو وسيرين وغيرهما من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان الى أن أجلاهم عنها فردريك الثانى فى أوائل القرن الثالث عشر وإحصاء من تبع من أهالى صقلية المسلمين أجل من أن يذكر وناهيك بابن حمديس الصقلى الشاعر المشهور وبجوهر الصقلى مؤسس الازهر وغيرهما .

وهنا ننتقل بكم أيها السادة إلى فرنسا مرة أخرى . فى سنة ٨٨٥ نزل جماعة عن قراصنة البحر العرب بعد أن قذفت بهم ريح زعزع عاتية على شاطئ بروفانس الجنوبى بالقرب من مرسيليا فوجدوا غابة كثيفة تصلح لهم مأوى فأسرعوا باحتلالها ولاتزال تعرف باسمهم حتى اليوم غابة (مورو) ووجدوا جبلا عاليا يشرف على البحر ويطل على وديان بروفانس ويعرف اليوم بجبل (مورو) نسبة اليهم فاحتموا بها وأسسوا حصنا عظيما هو حصن فراكسينا توم . ثم جاءتهم الامداد من أسبانيا وأخذوا يقذفون الرعب فى قلوب القرى المجاورة واستفحل أمرهم ، وكان ملوك المقاطعات الفرنسية الجنوبية فى شقاق ونزاع فاستعانوا بهؤلاء العرب الذين أصبحوا سادة البلاد الحقيقين . وأخذوا يتقدمون يوما فيوما نحو جبال الالب وفى سنة ٩٠٦ دخلوا مقاطعة دوفينى واحتلوا جميع المضايق التى تصل فرنسا بايطاليا وقطعوا المواصلات بينهما فصار مرور الناس عائدا الى أذنهم ثم شرعوا يشنون الغارة على بيمونت وسافوى واستولوا على نيس مرة ثانية وجرينوبل

وجنيف ولوزان فى وادى valais واشتكى المطران فالدو سنة ٩٤٠ من غارات العرب الى الامبراطور أوتون الالمانى ، لأن الاديرة قد لاقت من الخراب على أيديهم شيئا كثيرا ولان معابر الالب كانت بأيديهم والقسس والرهبان كانوا مضطرين الى زيارة روما كل سنة للحج فقطع عليهم العرب الطريق ونكلوا بهم تنكيلا فأقطع أوتون الرهبان أملاكا كثيرة على سبيل التعويض بموجب مرسوم مؤرخ سنة ٩٥٦ لايزال محفوظا فى أديرة سويسرا .

وقد حاول Heigues هوغ ملك بروفنس أن يخرج المسلمين ورأى أن أهم معقل لهم هو حصن فراسينت فطلب من صهره حاكم القسطنطينية أن يمده بسفن حربية ترمى عليهم النار من البحر بينما يقوم هو بمهاجمتهم من البر فاستجاب صهره لدعوته وكاد يقضى على العرب فى ذلك الوقت بيد أن منافسا لهوغ يدعى Bernger بيرانجه قدم من ايطاليا على رأس جيش عرمرم فاضطر هوغ الى مهادنة العرب على أن يبيح لهم كل جبال الألب على شريطة أن يقطعوا على بيرانجه طريق العودة من ايطاليا ، وهنا اشتد بأس العرب وقويت عزيمتهم فأمعنوا فى الغزو والغارة ونفذوا ما وعدوا به هوغ وهنا يقول المؤلف الألمانى المشهور ليويتراند فى (هوغ) .

« إنه جاء بها صلعاء مفحشة لاسبيل للعذر فيها . ويخاطب عرسان برنار بقوله : انك تسهل هلاك الاتقياء وتجعل نفسك حصنا وافيا للطغاة الذين يقال لهم المورو أفلا تخجل أيها التعس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشرى » .

وقد ترك العرب آثارا تدل على مكثهم زمنا طويلا بهاتيك البـــلاد ويوجد بكنيسة القديس بطرس مونتجو فى Valais كتابة عربية طمست ولم يبق منها الا بعض الحروف وقد وردت نصوصها اللاتينية وفيها « ان عصابة اسماعيلية انتشرت فى وادى الرون وألقت الرعب فى البلاد بالنار والحديد ورفعت الهلال فى أودية الأبنين » .

هذا وقد جاء فى تاريخ جمهورية جنوه لمؤلفه فردريك دى نافار أنه فى سنة ٩٣٤ جاءت قوة بحرية اسلامية من أفريقية فحصرت جنوه حصارا شديدا ولم يتمكنوا من دخولها هذه المرة بيد أنهم عاودوا الكرة ودخلوها وأخذوا غنائم كثيرة ورجعوا

لحصن أهل جنوة بلدهم منذ ذلك الوقت .

وهناك قرية بجوار رون يقال لها سراسينشكو أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم غزاة وقعوا الى تلك الأرض فأحاط بهم الأهالى وقتلوا بعضهم وتنصر بعضهم ويقال ان سحنهم لاتزال تدل على أصلهم العربى وأن مآ كلهم ومشاربهم وصنعة الغناء عندهم تدل على عروبتهم .

وفى القسم الغربى من وادى الساس بسويسرا الألمانية (مشابل وادى الزاس) وهى جمع مشبل مكان الأسود وفى القسم الاعلى منه مثلجة على العين Alain .

هذا وكان العرب أينما حلوا يقيمون ويزرعون ويعمرون ويتزوجون من الاهالى ولكنهم أجلوا عن بروفانس كلها فى أواخر القرن الحادى عشر ، ووقع فى الاسر منهم عدد كبير تنصر معظمهم واختلط بالأهالى .

وذكر الأستاذ دالماس أستاذ الامراض النسائية بكلية الطب بمونبليه فى محاضرته عن فضل العرب على جامعة مونبليه .

إن العرب نزلوا ببلدة ماجلون (جمع ماجل) وهو مجتمع الماء (ذكر أبو الوليد الأزرقى صاحب كتاب أخبار مكة كان بمكة ماجلان أحدهما بالمعلاة) وأقاموا بها مدة من الزمن إلى أن أجلاهم عنها شارل مارتل وأحرقها حتى لا يعودوا اليها وكانوا فى أثناء وجودهم فيها يبيعون الكتب الطبية ثم جاء منهم أطباء وصاروا يمارسون التطبيب . ويقال إنه يوجد فى متحف الجامعة بعض آثار وجدت فى ماجلون عليها بعض الايات القرآنية والاشعار العربية كما توجد على لوحة الاستاذية أسماء كثير من الاطباء الذين تعلموا الطب فى الاندلس .

— وعلى العموم فأثرهم فى جنوب فرنسا فى الرى والزراعة عظيم وهم الذين علموهم زراعة الأرز والصنوبر واستخرج القطران الذى تطلى به المراكب منهما ولا يزال يقال له حتى الآن فى هذه المقاطعة quitran قطران .

هذا وقد ظلت أسر عربية عديدة بعد تقلص حكم المسلمين من الأندلس تقطن فرنسا وسويسرا بعد أن أرغموا على اعتناق النصرانية ومنهم فى جنيف العلامة ابن أبى زيد الذى كان معاصراً لفولتير وروسو وكان من أهل طولوز الذين تنصروا

واعتنقوا البروتستانتية فلما صدر أمر لويس الرابع عشر بطرد كل البروتستانتيين من فرنسا خرج أبو زيد إلى جنيف ، وكان نابغا متضلعا فى جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفه والتاريخ وغيرها ، كما كان صديقا لفولتير وروسو ونيوتن وكانوا يستفتونه فى عويص المسائل . ولا يزال فى جنيف شارع مشهور باسم أبى زيد حتى يومنا هذا .

ووجود العرب فى جنوب فرنسا وسويسرا يفسر لنا ما أشكل على كثير من المستشرقين ، وفشلهم فى تعليل وجود التروبادور فى مقاطعة پروفانس فى أوائل القرن الثالث عشر ، مع أنه قريب جدا فى نغمه ووزنه وموضوعه من الموشحات الاندلسية . وأخذوا يتساءلون كيف وصل هذا الشعر إلى پروفانس ومن نقله ومن ترجمه . الواقع أن العرب الذين أقاموا فى هذه المقاطعة وفيما جاورها هم الذين نقلوه من الاندلس وهم الذين أثروا فى الشعر الفرنسى حتى أنتج التروبادور . وهذه الكلمة نفسها يحوى مقطعها الاول كلمة عربية أصيلة فى الغناء وهى (طروب) (١)

كلمة موجزة عن الحضارة العربية فى أوربا

ويكفيك أن تعلم أن سكان قرطبة قد بلغ نصف مليون نسمة وكان بها ٧٠٠ مسجد ، وثلثمائة حمام . وقد بلغ عدد منازلها مدة حكم عبد الرحمن الناصر ١١٣ ألف منزل وكان لها احدى وعشرون ضاحية وبها سبعون مكتبة عامة ، بل كانت المكاتب أحيانا فى الحدائق والمتنزهات .

وكانت شوارعها مرصوفة ومضاءة بالليل جميعها بمصابيح النفط ويوازن john Drapar (٢) بينها وبين لندن فيقول : لقد مضت سبعة قرون بعد ذلك ولم يكن فى لندن مصباح واحد يضيئها ليلا . أما باريس فقد مرت عليها بعد ذلك عدة قرون وهى تعج بالطين والوحل كلما أمطرت السماء ، ولا يكاد المرء يخرج من منزله حتى يغوص فيه بقدميه .

---

(١) lhe Legach of Islam

(٢) History of Intelectual development of Europe

وبينما كان يعد طلبة أكسفورد الاستحمام عادة وثنية كان علماء قرطبة يتمتعون منذ أجيال بالاستحمام فى أحواض أنيقة . ولقد حدت هذه الحال التى كان الأوربيون يعيشون فيها من التأخر والانحطاط ابن سعد صاحب الطبقات أن يعالل ماهم عليه فيقول : « لما كانت الشمس تشرق عليهم منحرفة صار جوهم باردا ملبدا بالغمام، وقد أدى ذلك إلى برودة مزاجهم وخشونة طباعهم بينما ضخمت أجسامهم وطالت شعورهم ، وقلت حدة ذكائهم ونفاذ بصيرتهم ، ولا ترى بين رجالهم إلا البلادة والغفلة » .

كانت قرطبة بمثابة باريس أو لندن أو نيويورك فى عصرنا هذا . كلما احتاج ملك ليون أو نافار أو برشلونة طبيبا أو مهندسا أو أستاذا فى الموسيقى أو حائكا اتجهوا صوب قرطبة .

وكانت انجلترا وفرنسا تستورد من الأندلس فى ذلك العهد الجلود المدبوغة والثياب والنسيج والحرير والصوف والأوانى الزجاجية والنحاسية والحديدية والرصاصية .

وكانت الحلى الياقوتية والذهبية تصنع فى ملقا . وكانت زخرفة الآنية بالفضة والذهب ، ونقش الأزهار عليها صناعة رائجة فى الأندلس أخذها عرب المغرب عن دمشق الشام ومن هنا دخلت هذه الكلمة فى اللغات الأوربية مثل Damascene بالانجليزية و Damashcan بالألمانية و Damasquines بالأفرنسية .

وقد أدخل العرب طرق الزراعة الحديثة فى أسبانيا وكثيرا من أشجار الفاكهة فحفروا القنوات التى لاتزال تسمى حتى اليوم فى أسبانيا acquia من العربية الساقية وهناك كلمة الأرز بالانجليزية Rice وبالأسبانية arroz وكلمة برقوق بالأسبانية olbaricoque وانقلبت فى الانجليزية opricot والرمان حيث لايزال عصيره يسمى كذلك فى أسبانيا . والزعفران بالانجليزية Soffron وبالأسبانية ozofran وكلمة شراب بالأسبانية Jarobe وبالانجليزية Syrup إلى غير ذلك من ألوف الكلمات التى لاتزال متغلغلة فى صميم الحياة الأسبانية والبرتغالية خاصة وأوربا عامة ولا سيما فى العلوم والاصطلاحات فالموسيقى مثلا يدين بها الأوربيون للعرب إذ أن

آلاتها عربية فالقيثارة صارت guitae والعود lute والرباب Rebeck . وليس هذا فحسب بل إن النوطة الموسيقية التي اخترعها الخليل بن أحمد وزاد عليها الفارابى والكندى وابن سينا مع ماعرفوه من الموسيقى اليونانية قد أثرت أثرا كبيرا فى الموسيقى الأوربية إذ لم تكن أوربا قبل العرب تعرف العزف الجمعى «أوركسترا» إلى أن أدخلت الكتابة الموسيقية العربية ، وقد أهدى هارون الرشيد لشرلمان ملك فرنسا منسوجات حريرية وقطنية لم يكن لها وجود فى فرنسا ، وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر عظيم الحجم وساعة من نحاس أصفر أيضا تتحرك بالماء وتدق اثنتى عشرة مرة بعدد ساعات النهار .

ولم يكن أهل أوربا يعرفون بناء السفن على شكل منظم واسع دقيق وأول من فعل ذلك هو عبد الرحمن الداخل وأسس « دار الصنعة » التى انقلبت فيما بعد دارسنا ثم آرسنا وأضيفت اليها لام النسبة فصارت أرسنال وحرفها الترك إلى « ترسانة » وكان قائد الاسطول يسمى أمير الماء ومنه جاءت كلمة أميرال .

هذا ونظام الفروسية Chevallerie الذى كان معروفا فى أوربا فى خلال القرون الوسطى قد تقرر فى عهد المنصور ابن أبى عامر ، وعن العرب أخذه الفرنسيون ومنه انتشر فى سائر أنحاء القارة .

وكانت تجارة الرقيق منتشرة فى أوربا ، وكان العرب يذهبون إلى بلاد الجرمانيين حتى شواطىء البلطيق ، وبلاد السلاف ، ويأتون بأصناف الرقيق ، ويسمون الجميع صقالبة ومفردها صقلبى ومن هنا جاءت كلمة Esclove بالفرنسية وبقيت فى الانجليزية Slave .

كان ملوك أوربا فى دهشة عظيمة من ملك العرب فى الأندلس ، وكانوا يرسلون إلى الأمويين ولا سيما عبد الرحمن الناصر الفراء والهدايا ، فكانت رسل البابا وامبراطور القسطنطينية ، وملوك أسبانيا وفرنسا وألمانيا والصقالبة تعد من الفخر أن يسمح لها عبد الرحمن الناصر بتقبيل يده ، وكان هو الآخر يبالغ فى إكرامهم ، ويفرش الأرض والطرقات بالبسط ليظهر عظمته وغناه وقوته .

وأخيرا كانت طليطلة فى القرن الثالث عشر كعبة الأوربيين فى العلوم والمعارف وان تقلص عنها ظل الاسلام . وذلك مدة لويس الحكيم الذى كان يكتب بالعربية ويدرس فلسفة ابن رشد ويلعب بالشطرنج الذى علمه له العرب .

ويجدر بنا قبل أن نختتم هذه الكلمة أن نذكر الدواعى العامة التى أدت الى خروج العرب من أوربا .

(١) استعان العرب بالبربر فى غزو أوربا ، والبربر شعب عنيد صلب القناة ، يشبه العربى فى استقلاله برأيه وشغفه بالسيطرة والحرية فما استقر بالغزاة الأمر فى الأندلس حتى ابتدأ التنافس .

كان العرب هم السادة ، والبربر مسودين فأنفت طباعهم البدوية قبول السيطرة طواعية ، وقدما لم يقبلوا الاسلام إلا بعد أن غزاهم العرب اثنتى عشرة مره ، وصاروا يتربصون باسيادهم الدوائر ، وكلما لاحت فرصة انتقاض على الحكم أو بارقة أمل باستقلال مقاطعة سارعوا اليها ، وهكذا كانوا دائما من أكبر عوامل الشغب والاضطراب . فاذا نكل البرابرة بالعرب انتهز الفرنجة الفرصة وطردوهم من احدى المقاطعات ، واذا عاود العرب الكرة على البربر هاجم الفرنجة الفريقين ، والأدهى من ذلك أن كلا الفريقين كان يستعين بالأجنبى (أيام هشام الثالث مثلا) وكان الأجانب يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون .

(٢) وياليت الأمر اقتصر على هذا العدو الداخلى والعدو الخارجى ، بل كان العرب أنفسهم فى حالة يرثى لها ، حملوا معهم من الشرق عصبياتهم وحزبياتهم وعنعناتهم ، فشيعة وسنة ، ويمنية وقيسية ، ويروى (دوزى) المؤرخ المشهور :أن اليمنية والقيسية خرجوا فى سنة ١٣٧ هـ من قرطبة للقتال فالتقوا قرب (شقندة) على نهر قرطبة ، ولما صلوا الصبح أخذوا يتطاعنون بالرماح حتى تكسرت ، ثم تضاربوا بالسيوف حتى تقطعت ثم تقابضوا بالأيدى وأخذ كل بتلابيب أخيه وشعره ولم يكن فى الاسلام موقعة أشد هولا بين المسلمين منها الا صفين ، ولما أعيا بعضهم بعضا أخذ بعضهم يضرب وجوه بعض بالقسى ويحثون التراب على الرؤوس

ويقول دوزى : ان بغض القيسية لليمن ، واليمن للقيسية أشد من بغض العرب والعجم ، ولقد استمرت هذه العداوة حتى آخر أيامهم فلما هاجم فرديناند وايزابلا مدينة غرناطة ، آخر حصون العرب بالاندلس كان أهلها يحاربون العدو نهارا فاذا جن الليل أخذوا يقتتلون فيما بينهم ، ولو وحدوا صفوفهم ، وائتلفت قلوبهم وتنبهوا للخطر الذى حاق بهم وتناسوا الاحقاد والاحن ولو فى الساعات العصيبة لتغير وجه التاريخ ، ولكن هكذا كانت مشيئة الله « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

(٣) ومن أسباب الخذلان كذلك زواج أمراء الجيوش التى كانت تحارب الفرنجة بنات الملوك بعد أخذهن أسرى ، وكان هؤلاء الزوجات يؤثرن على أزواجهن فيتقاعسون عن القتال كما حدث من عثمان ابن أبى عنسه قائد جيوش عبد الرحمن الغافقى والى الاندلس اذ تزوج عثمان ابنة دوق أكتانية وامتنع عن قتال الفرنسيين لحبسه عبد الرحمن وطلقها منه فأرسلها وغيرها من السبايا الى الخليفة هشام بدمشق وتزوج منها هشام .

لقد كان هذا السبب حتى فى العصور الاخيرة بمراكش والجزائر من أكبر العوامل التى ادت الى ضياع سلطان المسلمين ولقد صدق الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز حيث يقول : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر »

(٤) لما استقل الامويون بملك الاندلس انقطع ذلك المدد الذى كان يأتيهم من افريقية ومصر والشام والعراق ويلقح دماءهم بالدم العربى الشرقى ، ويحمل لهم قبسا من أرض العروبة ومهدها ويبث فيهم تلك الروح الوثابة التى مكنت أجدادهم من الفتح فيحيى موات قلوبهم .

ثم ان موارد الاندلس وحدها لم تكن كافية لمتابعة القتال ضد الفرنجة مع كثرتهم ، فابتدأ هؤلاء يقتطعون الدولة من أطرافها حتى تمكنوا أخيرا من اجلاء العرب عنها ، وبينما كان عرب الاندلس ينفصلون عن جسم الدولة العربية الكبرى

كانت فرنسا في عهد بيبيه القصير وابنه شرلمان تتحد وتقوى وتبسط نفوذها على من جاورها

٥) ويا ليت الامر يبقى عند هذا الحد فان أعيان الاندلس ورؤساءها انتهزوا فرصة ضعف الخليفة في قرطبة وأخذوا يكونون دويلات صغيرة عرفوا بها فيما بعد وسموا بملوك الطوائف كبني عباد باشبيلية ، وبني الافطس ببطليوس ، وبني ذي النون بطليطلة ، وبني الاحمر بغرناطة ، وبني هود بسرقسطه ، وهكذا شاء الله أن يجعل هذه الامة العربية تضعف وتنحل اذا تخاذلت وتمكنت من نفوس أبنائها النزعات الشخصية والاثرة ، وتقوى وتسود اذا اتحدت كلمتها وسارت تحت لواء واحد وزعيم واحد . وما أشبه الليلة بالبارحة .

عمر الدسوقي
المدرس الاول بمدرسة الخديو اسماعيل

مكتبة الجاحظ (١)

للأستاذ عبد السلام هارون

أعنى بها تلك الآثار التأليفية التى خلفها الجاحظ ، زعيم البيان العربى وشيخ كتاب العرب ، وأستاذهم الأول فيما يشهد الحق .

وقبل أن نتوغل فى هذا البحث ، الذى أردنا به التنويه بفضل هذا الرجل وإظهار ما طوته الأيام من براعة عبقريته نقدم له بترجمة يسيرة .

فهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، لقب بهذا اللقب لجحوظ عينيه جحوظا ظاهرا . وقد أكسبه ذلك الجحوظ قبحا ظريفا ، جعله أداة صالحة للتندر والمفاكهة

قال الجاحظ : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده . فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم . وصرفنى .

وقال الجاحظ أيضا : ما أخجلنى أحد مثل امرأتين ، رأيت إحداهما فى العسكر وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام .. فأردت أن أمازحها فقلت : انزلى كلى معنا ! فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا .

وأما الأخرى فإنها أتتنى ، وأنا على باب دارى ، فقالت : لى إليك حاجة ، وأريد أن تمشى معى ! فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى فقالت له : مثل هذا اوانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلى بفص وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان فقلت ياسيدتى : مارأيت الشيطان ! فأتت بك لأنقش الفص على مثالك !

والجاحظ عربى ، فهو كنانى ينتمى الى كنانة بن خزيمة ، وهو حجة ضد الشعوبية الذين يزعمون أن الأدب العربى واللغة العربية لم تنهض إلا على أكتاف الموالى والفرس .

---

(١) محاضرة القيت فى نادى دار العلوم فى ٤ من مارس سنة ١٩٠٣

ولد الجاحظ بالبصرة سنة خمسين ومائة ، وتوفى بها سنة خمس وخمسين ومائتين منحه الله عمرا طويلا ، استغله استغلالا صالحا فى نصرة البيان العربى ،وإذاعةالثقافة الإسلامية ، . فكان زعيم مدرسة أدبية تنتمى إلى الاسهاب ، ولطف الاحتجاج ، ودقة التبيين مع إشاعة الفكاهة والتهكم . وكان أيضا زعيم مدرسة دينية ، فكان رأس فرقة من فرق الاعتزال ، عرفت بالفرقة الجاحظية .

التأليف فى عصر الجاحظ

عاش الجاحظ فى دهر كان يزخر بالعلوم والآداب ، هو العصر الذهبى للأمة العربية ، عصر هارون والمأمون والمتوكل ، حين كانت معاهد البصرة وبغـــداد والكوفة وقرطبة وسائر عواصم الاسلام ، تفيض بالآداب والعلوم والفنون،وكان المعين فياضا مترعا ، والتأليف والترجمة لهما دوى شديد فى كل صقع ، والعلماء والأدباء فى نشاط عجيب ، يصل الليل بالنهار والغدو بالآصال .

فعاصر الجاحظ من علماء العربية أبا عبيدة ، والأصمعى ، وأبا زيدالأنصارى وكانوا جميعا شيوخه . وأخذ النحو عن أبى الحسن الأخفش ، والكلام عن النظام وشافه الجاحظ فصحاء العرب الذين كانوا يفدون إلى مربد البصرة ، فلقن منهم كثيرا من فصاحتهم ، وارتشف هنا البيان العربى الصافى ، وهذه اللهجة الصحيحة ، وتلك المعرفة الفطرية القوية .

ويعرف التاريخ فى عصر الجاحظ أربعة ممن ضربوا بسهم كبير فى وفارةالانتاج الفكرى والتأليف ، واستووا على غاية قصر عنها من عداهم .

فالواحد :ابوعبيدة معمربن المثنى ١١٠ — ٢٠٩ وكان من أهل البصرةولدوتوفى بها . قال صاحب الوافيات : « وتصانيفه تقارب مائتى مصنف » . وقد سرد ابن النديم منها فى الفهرست مائة وخمسة ، وقال فيه الجاحظ : لم يكن فى الأرض خارجى ولاجماعى أعلم بجميع العلم منه » .

والثانى : أبو الحسن على بن محمد المدائنى ١٣٥ — ٢٢٥ له نحو من مائتين وأربعين مصنفا على ما أحصيت فى فهرست ابن النديم . وقد روى عنه الجاحظ فى البيان وفى الحيوان روايات كثيرة .

والثالث : هشام بن محمد الكلبي الكوفى المتوفى سنة ٢٠٦ عددت كتبه فى الفهرس فألفيتها نحو مائة وأربعين مؤلفا .

والرابع إمام العربية والدين محمد بن إدريس الشافعي ، ولد سنة ١٥٠ وهى سنة ولادة الجاحظ وتوفى سنة ٢٠٤ .

وقلت : إمام العربية . لأن كثيرا من الناس لا يعلم فضل الشافعى فى هذه الناحية والحق أن الشافعى كان من أدق الناس خبرة بالعربية ، وأوسعهم فقها فيها، واطلاعا على أسرارها وحسبك أن تعرف أن الأصمعى وهو الإمام الكبير — قرأ على الشافعى أشعار الهذليين وضبطها وصححها . وحسبك أيضا أن تطلع على كتابيه العظيمين ، وهما الأم فى مسائل الفقه ، والرسالة وهى فى مسائل أصول الفقه، فتعرف إلى أى مدى وصل هذا الرجل فى معرفة العربية ، ودقة التعبير العربى كذلك . وهذا ماحمل الجاحظ ان يقول فيه : « نظرت فى كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا فى العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبى ، كأن لسانه ينظم الدر » .

وقد سرد ياقوت من كتب الشافعى مائة واثنين وأربعين كتابا ، منها كتب تدخل فى كتاب الأم .

عاصر الجاحظ هذا الرهط ، وأدرك هذه الجماعة التى منحت الثقافة العربية ثراء وافرا ، فكان له بهم أسوة ، ونهج نهجهم الذى سلكوا . وكان ذلك إلى ماوهبه الله من امتداد العمر ، وتملك الفصاحة ، من أقوى الأسباب التى تضافرت على إنشاء مكتبة الجاحظ .. الغنية بعددها وبقيمتها الادبية والفكرية والدينية أيضا » .

ومن العوامل القوية التى أدت إلى اثراء مكتبة هذا الرجل ، شدة ولوعه بالقراءة وجلده عليها . قال أبو هفان : « فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى انه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » .

وسائل النشر فى عصر الجاحظ

ويعجب العاجب من وجود هذه الظاهرة الغريبة فى ذاك العصر .. أعنى كثرة المؤلفات لرجل واحد . يعجب العاجب لظهور ذلك فى عصر كانت وسائل النشر فيه غير متوافرة . فليست هناك مطبعة ، وليست هناك هيئات أدبية تعمل على اذاعة

المؤلفات ونشرها . ولم يكن القراء حينئذ بالكثرة التى نراها الآن .. فما السر إذن فى ذلك ؟ .

لم تكن هناك مطبعة حقا ، تستطيع إخراج الآلاف من الكتب فى وقت وجيز ولكن أمرا آخر له خطره وجليل شأنه ، كان يقوم مقام المطبعة ، وكان له نشاط لا يستهان به . ذلك هو النظام الذى كان يعرف بنظام الوراقة . يتخصص به أناس معروفون ، ينقلون الكتب ويكتبونها ، ويشترونها ويشرونها ويجلدونها ، ويصححونها أحيانا .. هؤلاء الوراقون كانوا بمثابة مطابع حية تنشر المعارف فى تلك العصور القديمة ، وكان لهم خطر عظيم لا يقل عن خطر هذه المطابع الحديدية فى عصرنا هذا .

والذى يتصفح معجم الأدباء لياقوت ، يستطيع أن يمس عظمة هذه الدولة ، أعنى دولة الوراقين ، الذين كان بينهم كثير من أعلام الأدباء والعلماء والشعراء . وبحسبك أن تعرف أن ياقوتا نفسه كان وراقا ينسخ الكتب بالأجر كما يحدثنا بذلك ابن خلكان . وكان كذلك من كبار تجار الكتب . قال يتحدث عن نفسه فى أثناء ترجمة قابوس بن وشمكير : « توجهت الى الشام وفى صحبتى كثير من كتب العلم أتجر فيها » .

وياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » ناقد صيرفى لتلك الطائفة من الوراقين . فيقول : « هذا مليح الخط ، متقن الضبط » ويقول : هذا ردىء الكتابة ، سقيم الخط ومما قاله فى ترجمة من يدعى الفضل بن عمر بن منصور . « وخطه فى غاية الجوده ، على طريقة ابن هلال البواب . ولذا أوردناه فى هذا الكتاب » . فيجعل سبب ذكره فى هذا المعجم أنه وراق جيد الخط حسن الكتابة .

وحسبك أيضا أن تعرف أن ابن النديم صاحب الفهرست كان أحد أولئك الوراقين الاعلام . وأن تعرف أن صناعته هذه الجليلة هى التى يسرت له أن يخرج لنا هذا الكتاب الخالد ، الذى نرجع اليه كلما أظلمت علينا مسالك البحث فى غيره من الكتب ، فنظفر منه بما يروى الغلة ويعين على التحقيق .

وأما الهيئات الادبية فكانت معروفة أيضا ، وإن لم تكن بمظهرها الحديث الذى

نلمسه بين ظهرانينا . فهؤلاء الوراقون الألى ذكرت كانوا من أعضاء هذه الهيئة . وكان أيضا من أشخاص الولاة والخلفاء هيئات أدبية تعمل على تشجيع نشر الكتب وإذاعتها واجازة مؤلفيها بالمنح العظيمة . والعطايا الفاشية .

وكانوا ينفقون على التأليف وعلى الترجمة وسائر ضروب التثقيف العام والخاص مالا يستهان به من الأموال الطائلة . ويمتد بنا القول لو ذهبنا فى بيان ذلك الجود الحاتمى الذى كانت تسخو به أيدى الخلفاء والولاة والسراة .

وأما أن القــراء لم يكونوا كثيرين فى تلك العصور ، فليس ذلك بمؤثر فى ذيع الثقافة ، وانبلاج نورها بين الناس . بل نستطيع أن نقول : ان المثقفين فى ذلك العصر كان عددهم يفوق عدد المثقفين فى عصرنا هذا .

وقلت : « المثقفين » ولم أقل « المتعلمين » لأن نسبة المتعلمين فى عصرنا هذا أكثر عددا بلا ريب من المتعلمين فى عصر الجاحظ . ولكن المثقفين أعنى من توغلوا فى مختلف نواحى العلم توغلا كبيرا كانوا فى عصر الجاحظ أكثر عددا منهم فى عصرنا هذا ، فكان هناك صبيان يفتون فى مسائل الفقه ، وكانت هناك جوار يقلن الشعر ويغشين مجالس الأدب ، ويروين حديث الرسول . وكان أيضا رجال كثيرون لايحصيهم العد ، وتعرفهم كتب التراجم وكتب الرجال .

كان من أولئك المثقفين المنورين مشجع قوى على اثراء المكتبة العربية ،وعلى كثرة انتاج المؤلفين وكثرة انتاج المؤلف الواحد أيضا .

أسلوب الجاحظ فى التأليف

سلك الجاحظ مسلكا غريبا فى التأليف ، فطرق أبوابا عجيبة منه ، فهو يحدثنا عن البخلاء ، وعن الحاسد والمحسود ، وعن تفضيل النطق على الصمت ، ويحدثنا عن حيل اللصوص ، وعن غش الصناعات .

ويتكلم فى القيان ، وفى أخلاق الكتاب ، وفى المعلمين والطفيليين والملوك والمغنين ، وأخلاق الفتيان ، وفضائل أهل البطالة .

ويتحدث عن جميع الأنواع البشرية من ترك ، وصقالبة ، وحمران ، وسودان وبيض ، وعرب وعجم ، وعرجان وبرصان وحول وعور .

وعن الطوائف الدينية ، كالشيعة ، والزيدية والمشبهة والجهمية والمعتزلة، ويذكر لنا مذاهب اليهود والنصارى والمجوس .

يتحدث عن نقض مذاهب الأطباء ، وعن التفاح والنبيذ والقلم والكتب، والنرد والشطرنج . يصنع فى كل من أولئك كتابا .

وكأن الجاحظ لم يترك شيئا مما يجول بخاطر إنسان ، أو يمر بذهنه ، إلا كتب وأبدع إبداعا وأوفى على الغاية .

وأذكر هنا قولا صادقا لأبى العيناء . وذلك أن سائلا سأله وقال : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟ فأجابه أبو العيناء : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ لايحسن ؟ !

وشىء آخر امتاز به الجاحظ من بين جمع المؤلفين فى عصره ، وهو ادمان الفكاهة . فهو لايبرح يشيع الفكاهة فى تصانيفه ، ولايدع فرصة تصلح للفكاهة والمطايبة إلا انتهزها انتهازا . وأنت تستطيع أن تتصفح أى كتاب أو أية رسالة له ، فتجد فى ذلك البرهان راضحا ، والدليل ساطعا .

وتعد رسالة التربيع والتدوير ، التى صنعها فى من يدعى أحمد بن عبد الوهاب أبرع ما كتب الجاحظ فى فن الفكاهة.

وكان أحمد ــ فيما يقول الجاحظ ــ مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول وكان مربعا وتحسبه مدورا ، وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة .

يقول له الجاحظ : « وهل غاية الجميل إلا وصفك ، وهل زين البليغ الامدحك وهل يأمل الشريف الا اصطناعك . وهل يقدر الملهوف إلا غياثك . وهل للماتح رجز الا فيك ، وهل يحدو الحادى الا بذكرك ؟! لا بل أين الحسن المصمت، والجمال المفرد ، والقد العجيب ، والكمال الغريب ، والملح المنثور ، والفضل المشهور الالك وفيك . وهل على ظهرها جميل حسيب ، أو عالم أديب الا وظلك اكبر من شخصه وظنك أكبر من علمه ؟ ! وهل أغلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك ، وهل حملت النساء أجل منك .

ويقول : « وما على ظهرها خود الا وهى تغنى باسمك ، ولاقينة الا وهي تغنى

بمدحك ، ولافتاة الا وهى تشكو بتاريخ حبك ولامحجوبة الا وهى تنقب الخروق لمرك ، ولاعجوز الا وهى تدعولك »

ويقول فى رسالة النساء : « وبعد فايما أحسن وأملح ، وأشهى وأغنج : أن يغنيك فحل ملتف اللحية كث العارضين أو شيخ متخلع الأسنان مغضن الوجه ثم يفنيك اذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيرا تحت كلكل خالد فأقبلت أسعى كالعجول أبادر

أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوته أو من فضة مجلوة — بشعر عكاشة بن محصن :

من كف جارية كأن بنانها من فضة قد طوقت عنابا
وكأن يمناها اذا نقرت بها تلقى على الكف الشمال حسابا

وللجاحظ فى البيان والتبيين من حشو الفكاهة وجمع النوادر ما اذا سردنا بعض شواهده طال القول بنا .. وفى كتاب الحيوان مطايبات شتى ، ومتعة طيبة للقارىء

كان الجاحظ رجلا مؤالفا متصلا بجمهور الناس اتصالا شديدا . فهو جليس الخلفاء والوزراء والكتاب . وهو أيضا يجلس الى الباعة والكناسين والحواة والموسوسين والمجانين . وكان يتعرف الى بداة الأعراب ، كما كان مصادقا للترك وللروم والسنديين وكان يجالس الشيوخ والمسان ، كما كان يجالس الصبيان .

روى ياقوت أن سلام بن يزيد قال يصف دخوله على الجاحظ مرة : قال سلام: « وسألت عن منزله — يعنى منزل الجاحظ — فأرشدت ودخلت اليه فاذا هو جالس وحواليه عشرون صبيا ، ليس فيهم ذو لحية غيره » .

وواضح أن تلك المخالطة قد أكسبته معرفة كاملة بطبائع الناس ، وأطلعته على كثير من مصادر الفكاهة .

ونستطيع أيضا أن نقول : ان الجاحظ كان صيادا ماهرا للظرفاء . واليك مثلا من ذلك .

قال الجاحظ : كان يأتينى رجل فصيح من العجم ، فقلت له : هذه الفصاحة وهذا البيان ! لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لاتنازع فيها .

قال : فأجابنى الى ذلك فجعلت أحفظه نسبا حتى حفظه فقلت له . الآن . لا تته علينا ! فقال : سبحان الله ان فعلت ذلك فانى اذن لدعى .

وفى الحق أن نعد الجاحظ شيخ الفكاهة العربية فى عصورها الأولى ، وهوأيضا زعيم من زعماء التهكم ، التهكم اللاذع الحار . قيل لأبى عفان : لم لاتهجو الجاحظ وقد ندد بك ، وأخذ بمخنقك ؟! فقال : أمثلى يخدع عن عقله ؟ والله لووضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست الا بالصين شهرة .

وشيء ثالث : هو من خصائص الجاحظ فى فن التأليف ، يعرفه من مارس صناعة التعليم ، وعرف مايتطلبه التلميذ أو المعلم من أستاذه : من كثرة التكرار والمعاودة وصوغ الدرس بصيغ مختلفة متنوعة ، كى تتأدى المعارف الى ذهنه تأديا صادقا ، ولتثبت العلوم فى ذهنه ثباتا ، فلا تذهب مع الذاهبات .

فالجاحظ يلح على المعنى الواحد بمختلف صنوف التعبير ، ولايترك قارىء كتابه حتى يتيقن هو أنه قد أوضح له المعرفة ايضاحا ، وحتى يطمئن الى أن القارىء قد وعى ما أراد القاءه اليه وعيا تاما .

ولذلك نجد الجاحظ يذهب فى الكتب الى أنها أجدى نفعا من المعلمين ، وأن عملها يجزىء عن عمل المعلمين ويغنى غناءه

وله فى صدر المصحف الأول من الحيوان كلام طويل فى هذا ، وتستطيع أن ترجع اليه .

ومن قوله فى شأن الكتاب : « وهو المعلم الذى إن افتقرت اليه لم يخفرك ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك » .

ولذلك أيضا لانجد رجلا تأدب بأدب الجاحظ ، وتناول كتبه بالقراءة والدرس إلا خرج وقد سرى فيه عرق من أدب هذا الرجل سريانا واضحا ، أو نفحته نفحة ظاهرة من بيانه .

وفى عصرنا هذا جمهرة من الكتاب تتلمذوا للجاحظ فنالوا من بيانه قسطا

وافرا ، وأعداهم ذلك على جمال فنهم ، ونضرة حديثهم ، وظهر عليهم فضل الجاحظ ظهورا بينا .

والأمر الرابع — الذى نلمحه فى كتب الجاحظ هو التنويع وهذا راجع إلى طبيعة الأستاذية فى الجاحظ ، التى أشرت إليها قريبا . فأخص خصائص المعلم أن يتنقل بتلاميذه كلما طال عليهم الوقت فى معارف شتى ، حتى لا يملوا درسه ويسأموا ما يلقنهم إياه من مسائل العلم أو مسائل الأدب .

وهو يقول فى ذلك : « فانى رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغانى الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال عليها ذلك . وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة » .

ويردد قول أبي الدرداء : « إنى لأجم نفسى ببعض الباطل ، كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها » .

ولذلك أيضا نجد الجاحظ يصطنع الاستطراد . ويستعمل التعقيب ، وليس ذلك عجزا منه ولا التفاتا عن الغرض الذى نصب له نفسه ، وإنما ليروح عن القارىء ويستجلب نشاطه ويجدد انتباهه .

وأمر خامس هو من خصائص مكتبة الجاحظ ، وهو تناولها كثيرا من الأمور التى تبدو أنها متناقضة ، والتى تشعر القارىء لأول وهلة أن ذلك الرجل يناقض نفسه فيما يكتب فهو يمدح النبيذ حينا ويذمه حينا آخر ، وهو يمدح الوراقين تارة ويذمهم أخرى .

ولكن المنصف يرى أن الرجل لم يناقض نفسه ، بل نظر إلى الشىء الواحد نظرتين من ناحيتين مختلفتين . ولكل أمر من الامور ما يقتضى مدحه حينا وذمه حينا آخر ، حتى الصدق وحق الأمانة وهما الأساس الأول للفضائل

وكلكم يذكر قول عمرو بن الأهتم « رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقبح ما علمت » وقول رسول الله في ذلك « إن من البيان لسحرا » وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الثانية

وهذه الخاصة الجاحظية هى بلا ريب برهان ساطع على ذكاء روح هذا الرجل وقوة فنه وتمام اقتداره .

وأمر سادس — تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو حرية الفكر ، التى لايفتأينادى بها عند كل مناسبة . فهو شـديد التهكم حينما يتحدث عن حجة لايسيغها العقل ، ولا يقرها الفكر الحر . وهو يحشد أقصى مايستطيع من الحجج حين يعرض رأيا لأحد الجامدين أو المتعلقين بأذيال الخرافات والأساطير ، فاذا الأساطير والخرافات تتهالك فى يديه ، كما يتهالك الليل البهيم للصبح الطالع .

وهو كذلك يعترض كثيرين من العلماء وكبار الفلاسفة . وفى مقدمتهم أرسطو وكذلك أستاذه أبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام . وكتاب الحيوان ميدان فسيح يجول فيه صاحبنا ويصول ، برأيه الحر ، ويرفع علم الثورة على المتعنتين من المفسرين والقصاص والمتزمتين ، بل على المتحذلقين من اللغويين والأدباء ، فهو يندد فى الجزء الأول من الحيوان بكتب أبى الحسن الأخفش واستغلاقها على الناس ، وهو يتهكم بالمفسرين وأصحاب الأخبار الذين زعموا أن أهل سفينة نوح كانوا قد تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير . فلذلك السنور أشبه شىء بالأسد . وأخرج الفيل زوج خنازير . فلذلك الخنزير أشبه شىء بالفيل . ثم هو يروى سخرية أبى عبيدة من هذا الخبر ، وضحكه مما فيه من خرافة .

والجاحظ أيضا يتهكم بالقصاص ، ويصور لنا صورة طريفة منهم متمثلة فى شخص « أبى كعب القاضى » حين حمل المستمعين على التهليل والتكبير ليخفى أمرا مستنكرا ضاقت به نفسه ولم يستطع إمساكه .

ويروى أيضا أن أبا كعب هذا أرسل رسولا له إلى مجلس الوعظ فى مسجد عتاب ، ومعه هذه الرسالة : يقول لكم أبو كعب انصرفوا ؛ فانى قد أصبحت اليوم مخمورا ! .

وأمر سابع تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو كثرة تناول المسائل الكلامية ، والحرص على اقتناص مناسباتها فى أثناء الكتب . فبينا نرى الجاحظ يفيض فى الحديث عما قال العرب من شعر بديع فى النار إذا به يهجم على مسألة من مسائل

الجوهر والعرض ، والثواب والعقاب ، والجزء الذى لايتجزأ . حتى الفكاهة لايخليها من هذه المناسبات الكلامية . فهو يروى فى الحيوان أن رجلا من أهل الكوفة قال لهشام بن الحكم ، صاحب مذهب الهشامية ، وهم فرقة من المشبهة أن هذا الرجل قال لهشام : أترى الله عز وجل فى عدله وفضله كلفنا مالا نطيق ثم يعذبنا ؟ قال هشام: قد والله فعل ولكنا لانستطيع أن نتكلم به .

ويروى أيضا أن بعض أصحابه سأل أبا اقمان الممرور عن الجزء الذى لايتجزأ ماهو فأجاب : الجزء الذى لايتجزا هو على بن أبى طالب ! فسأله أبو العيناء قائلا : أفليس فى الأرض جزء لايتجزأ غيره ؟ قال : بلى ، حمزة جزء لايتجزأ ، وجعفر جزء لايتجزأ . قال : فما تقول فى العباس ؟ قال : جزء يتجزأ . قال : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ قال أبو بكر يتجزأ وعمر ، يتجزأ . قال : فما تقول فى عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين والزبير يتجزأ مرتين

وقد عقب الجاحظ على هذه الفكاهة بأن هذا الرجل الممرور لما سمع المتكلمين يذكرون « الجزء الذى لايتجزأ » هاله ذلك ، وكبر فى صدره ، وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشىء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لايتجزأ

وهذه الثروة الكلامية التى اودعها الجاحظ كتبه ، قد حفظت علينا كثيرا من مذاهب المعتزلة التى لاتستطيع تخليصها من كتب الفرق الاسلامية ، التى جرت على تسفيه آراء المعتزلة واشباههم ورميهم بما هم منه براء .

ولعلك تسخر معى حين تسمع ان بعض هؤلاء الفضلاء — وهو صاحب الملل والنحل — يروى ان الجاحظ يقول فى القرآن : « القرآن جسد . يجوز ان يقلب مرة رجلا ومرة حيوانا » ، وقد ذكر مثل هذا القول الإيجى صاحب المواقف بلفظ : (يجوز ان يقلب مرة رجلا ومرة انثى) . وليس هذا القول الذى يتبرأ من نفسه بمحتاج إلى تعليق ، فعقل الجاحظ هو ماعلمت وما سمعت

كتب الجاحظ اذن من اهم المصادر الحقيقة لمعرفة الاعتزال ، كما كان تفسير الزمخشرى من بعده مصدرا صالحا ايضا فى بيان مذهب المعتزلة ، وتطبيق آرائهم على نصوص كتاب الله .

وأمر ثامن : تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو حديثها عن كثير من الأشياء التى لم

يخض فيها أحد من قبل ، أو التى يحجم الناس عن الكتابة فيها ، استهانة بشأنها . أو فرارا من التهمة فيها . ولكن الجاحظ رجل جرىء ، رجل جرىء حقا . فلم يحدثنا التاريخ أن رجلا ألف كتابا فى .... فيماذا ؟ فى حيل اللصوص . ولكن الجاحظ يتكلم فى ذلك ويسهب فى القول ويأتى بالعجب العاجب . وقد ذكر من هذا الكتاب فصلا فى الجزء الثانى من الحيوان . كما نقل الراغب الأصفهانى فى محاضراته بعض هذه الفصول ، فنعرف أن هؤلاء اللصوص كانت لهم مدرسة ، وكان لهم أستاذ يدعى « عثمان الخياط » وكان زعيمهم . قالوا سمى بالخياط ، لأنه نقب على أحذق الناس وأبعدهم فى صناعة التلصص وأخذ مافى بيته . وخرج وسد النقب كأنه قد خاطه . فسمى بذلك .

ومن أقوال عثمان الخياط لبعض أتباعه ومريديه من اللصوص : « لم تزل الأمم يسبي بعضهم بعضا ، ويسمون ذلك غزوا ، وما يأخذونه غنيمة ، ويذكرون أن ذلك من أطيب الكسب . وأنتم فى أخذ مال الغدر والفجرة أعذر . فسموا أنفسكم غزاة ، كما سمى الخوارج أنفسهم شراة ! » .

ومن مأثور قول عثمان الخياط : « اللص أحسن حالا من الحاكم المرتشى ، والقاضى الذى يأكل أموال اليتامى ! » .

وقد كتب الجاحظ أيضا فى « غش الصناعات » قال صاحب الفرق بين الفرق فى شأن هذا الكتاب الخطير : « وقد أفسد به على التجار سلعهم » .

وغير هذين فى هذا الفن كثير .

والأمر التاسع : أن هذه المجموعة القيمة من كتب هذا الرجل ، ترسم لنا صورة طويلة عريضة من صور الحياة فى العصر العباسى . هذه الصورة نرى فيها الثقافة الفكرية فى نواحيها المتعددة ، وفروعها المتوشجة . وكأن هذا الرجل لم يترك علما من العلوم التى عرفها القوم ، ولا فنا من الفنون إلا اطلع عليه وأخذ منه بنصيب قليل أو كثير .

وهذه الصورة أيضا نرى فيها الحياة السياسية التى كان يحياها القوم . فى رسالته إلى الفتح بن خاقان ، التى تتضمن مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، يرينا مبلغ توغل

الترك والفرس فى سياسة الدولة العباسية ، ومقدار سلطانهم واعتزازهم بأنفسهم ، ويروى لنا طرفا من أمر الخوارج ويصف لنا بأسهم .

وهذه الصورة أيضا نرى فيها الحياة المدنية ، حتى لكأنما نعايش العباسيين ، فنرى منازلهم وحماماتهم ومصابيحهم ، وملابسهم ، ومطاعمهم ، ومشاربهم،ومآدبهم وصناعاتهم ، ونظمهم الاجتماعية والصحية والعمرانية . وغير ذلك من دقائق الحياة التى انتبه الجاحظ اليها انتباها دقيقا ، ولا سيما فى « كتاب البخلاء » الذى يعتبر بحق أصدق مصورة راسمة للعصر العباسى ، وأهم مرجع فيه .

ولا يقتصر الأمر على تصوير العراق ، فهو يصور أيضا أحوال سائر الأمم المعاصرة من الفرس والهند والصين وأهل مصر والمغرب .

لذلك كانت مكتبة الجاحظ سندا قويا لمن أراد أن يلم بدقائق العصر العباسى ، وأن يتعرف إلى الحياة العامة فيه .

والأمر العاشر : هو اهتمام الجاحظ بتسجيل الحياة اليومية . وهو فى ذلك قد ضرب الرقم القياسى — كما يقولون . فغيره من المؤلفين إنما كان جل همه أن يذكر الأخبار القديمة ، والآثار المروية ، كما كان يفعل المدائنى وابن قتيبة ومن أتى بعدهم من رواة الأخبار . فهم لايولون الأخبار المعاصرة إلا الجانب اليسير من اهتمامهم ولكن الجاحظ كان لايفتأ يذكر أسماء معاصريه ، ويروى نوادرهم ، ويتندر بهم إذا شاء . وهو لايدع شيخا أو شابا ، ولا عاقلا أو مجنونا ، ممن تقع له النادرة، أوتصدر عنه الفكاهة ، أو يتصل به الخبر إلا عرض ذلك بين يدى قارئه ، وأطلعه عليه إطلاعا فهو بلا ريب صحفى العباسيين ، وهو بلا ريب شيخ الصحافة العربية ، وأول من حاول إنشاء الصحف والمجلات العربية .

ذيوع كتب الجاحظ

كانت كتب تذيع وتشيع ، وتطير إلى الآفاق البعيدة فى حياته للرغبة الملحةفيها ولحرص الناس على مافيها من خير كثير

واليك صورة تنبيك عن مبلغ هذا الذيع ، وتقف بك على مقداره

روى صاحب تاريخ بغداد عن يحيى بن على أنه قال : « حدثنى أبى قال : قلت للجاحظ : إنى قرأت فى فصل من كتابك المسمى كتاب البيان والتبيين إن مما يستحسن من النساء اللحن فى الكلام واستشهدت ببيتى مالك بن أسماء :

وحــديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

قال : هو كذاك.. قلت : أفما سمعت بخبر هند بنت أسماء — وهى أخت صاحب هذين البيتين — مع الحجاج حين لحنت فى كلامها فعاب ذلك عليها فاحتجت ببيت أخيها ، فقال لها الحجاج : إن أخاك أراد أن المرأة فطنة فهى تلحن بالكلام إلى غير المعنى فى الظاهر ، لتستر معناه وتورى عنه ، وتفهمه من أرادت بالتعريض ، كما قال الله تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » ولم يرد الخطأ من الكلام. والخطأ لا يستحسن من أحد . فوجم الجاحظ ساعة ثم قال : « لو سقط إلى هذا الخبر لما قلت ما تقدم! فقلت له : فأصلحه . فقال ألآن وقد سار الكتاب فى الآفاق . هذا لا يصلح !

فهذه صورة من صور ذيع كتب الجاحظ .

تقدير القدماء لكتب الجاحظ

نترك القول لياقوت يحدثنا حديثا عجبا فى هذه الناحية ، فهو يروى أن أبا حيان قال : « ومن عجيب الحديث فى كتبه ما حدثنا به على بن عيسى النحوى الشيخ الصالح قال : سمعت ابن الاخشاد شيخنا أبا بكر يقول : ذكر أبو عثمان فى أول كتاب الحيوان أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست ، ومر بى فى جملتها : الفرق بين النبى والمتنبى وكتاب دلائل النبوة ... فأحببت أن أرى الكتابين ولم أقدر على واحد منهما وهو كتاب دلائل النبوة ... فهمنى ذلك وساءنى سوء ظفرى به . فلما شخصت من مصر ودخلت مكة — حرسها الله — حاجا ، أقمت مناديا بعرفات ينادى — والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازح أوطانهم ، وتباين قبائلهم وأجناسهم من المشرق الى المغرب ، ومن مهب الشمال إلى مهب الجنوب ، وهو المنظر الذى لا يشابهه منظر — : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبى والمتنبى لأبى عثمان الجاحظ على اى وجه كان !

قال : فطاف المنادى فى ترابيع عرفات وعاد بالخيبة وقال : حجت الناس منى ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به .

قال ابن الأخشاد : وإنما اردت بهذا ان أبلغ نفسى عذرها . قال ياقوت : « وحسبك بها فضيلة لأبى عثمان ان يكون مثل ابن الاخشاد وهو من هو فى معرفة علوم الحكمة ، وهو رأس عظيم من رءوس المعتزلة يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت الحرام . قال ياقوت : وهذا الكتاب موجود فى ايدى الناس اليوم لاتكاد تخلو خزانة منه . ولقد رايت انا منه نحو مائة نسخة او اكثر.

ثم نعود إلى المسعودى — وهو ممن يعد فى خصوم الجاحظ — فنجده يقول فى نعت كتب الجاحظ : « وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدا الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها احسن نظم ، ورصفها احسن رصف ، وكساها من كلامه اجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو اشرفها ، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومستحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به ، وكتاب الحيوان ، وكتاب الطفيليين والبخلاء . وسائر كتبه فى نهاية الكمال ، ما لم يقصد منها الى نصب او إلى دفع حق »

ثم نتراجع إلى الوراء ونسأل الجاحظ نفسه أن يحدثنا حديث الصدق عن كتبه ونظرة الناس اليها ، فإذا هو يجيبنا فى ثقة ويقين واعتزاز بالنفس . قال فى الجزء الثانى من البيان :

« ولما قرأ المأمون كتبى فى الإمامة فوجدها على ما أمر به ، وصرت اليه — وكان قد أمر اليزيدى بالنظر فيها ليخبره عنها — قال لى : قد كان بعض من نرتضى عقله ونصدق خبره ، خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة ، وكثرة الفائدة . فقلت : قد تربى الصفة على العيان . فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة . فلما فليتها أربى الفلى على العيان . كما أربى العيان على الصفة » .

وهذه شهادة تاريخية جليلة . لها قيمتها ولها قدرها .

عدد كتب الجاحظ

والآن ننتقل الى الحديث عن عدد كتب الجاحظ . فنجد أن هذا الرجل قد خرج عن زهاء ثلثمائة وستين مؤلفا . فى ألوان شتى من المعرفة . رأى أكثرها فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ .

قال فى كتابه « مرآة الزمان » عند ذكر الجاحظ : « أما مصنفاته فثلثمائة وستون مصنفا . ووقفت على اكثرها فى مشهد الامام ابى حنيفة » .

هذا اقصى تقدير عددى وصلت اليه كتب الجاحظ . على ان ادنى ماتنزل اليه ان تكون مائة ونيفا وسبعين كتابا قال ابن حجر فى لسان الميزان : « وسرد ابن النديم كتبه ، وهى مائة ونيف وسبعون كتابا » هذا آخر كلام ابن حجر .

ووجدت ياقوتا فى معجم الأدباء قد سرد منها مائة وثمانية وعشرين مصنفا .

وليس يمكننا القطع برقم خاص لعدد كتب الجاحظ . ولكن نستطيع ان نقول : إن الجاحظ كان من اخصب علماء عصره وادبائه انتاجا ان لم نقل انه اخصبهم واغزرهم فيضا !

ويسأل السائل : اين طوح الدهر بهذه المجموعة الجاحظية الهائلة ؟ وكيف لم يظهر للناس منها الا مقدار يسير تعده اصابع اليد ؟

فالحق ان كثيرا من كتب الجاحظ قد ضاع فيما ضاع من آثار السلف ، وعدت عليه عوادى الأيام والناس ايضا .

فالفوضى السياسية التى منيت بها الأمم الاسلامية فى مسائها الأول والتى كانت قائمة فى اكثر ماتقوم على التدمير والتخريب والانتقام من غزوات السلاجقة والتتار وغيرهم — جعلت تهدم فى هذا الصرح الفكرى حتى اتت على الكثير من قواعده ، ولم تبق إلا وشلا من محيط

وكذلك كان لخمود الهمم وضعف العزائم اثر كبير فى ضياع هذه النفائس وفقدها .

ومهما يكن فقد ابقت الايام لنا من آثار هذا الرجل مقدارا صالحا ، سار

بعضه بين الأدباء ، فكان له فضل عظيم فى تقويم ألسنتهم وتأدبهم ، وحمت بعضه الآخر خزائن متناثرة فى انحاء المعمورة ، اشار اليه المستشرق الكبير « بروكلمان » فى معجمه وهى اكثر من سبعين كتابا ، تزدان بها خزائن المتحف البريطانى ، وداماد ابراهيم ، وكوبريلى ، والفاتح والموصل ، وجوتا ، وميلانو ، وغيرها .

وقد أخذت على نفسى عهدا ان اقوم بخدمة هذه المكتبة وبدات منها بكتاب الحيوان ، وعسى الله ان يهب لى من سعة الوقت والحال مايسعفنى باستحضار هذه الكتب ونشرها بين ابناء العربية نشرا علميا صالحا ، وفاء لهذا الرجل العالمى العظيم ووفاء لهذه الدار التى حبب إلى اساتذتها ادب الجاحظ فصرت إلى ان اولع به ولوعا ، واغرم به غراما .

واشكر جماعة دار العلوم لما اتاحت لى من هذه الفرصة السعيدة واهنئها بهذه النهضة الثقافية فى عهدها الجديد ، ألذى يذكى شعلته سعادة رئيسها وحضرات اعضائها الأجلاء .

عبد السلام هارون

المدرس بمدرسة الظاهر

« مشكلات »

للأستاذ زكى المهندس

وأخيرا قضى الأمر وأصبحت مرة أخرى فى قبضة مدير الصحيفة وهو — كما نعلم جميعا — قاس فى الحق لايرحم وصلب فى الجد لايلين . ومن قبل كنت كثيرا الافتنان فى المراوغة والاحتيال والزوغان ، أبدو ثم أختفى وابدأ ثم لاأنتهى واعد ثم أخلف ولكن ماحيلتى اليوم وقد نصب مدير الصحيفه حولى شباكه وحاطنى بحبائله واستطاع فى حذق دبلوماسى بديع أن يحمل مجلس الجماعة على أن يقرر أن اكتب فى الصحيفة وأن يكون لى مقال فى كل عدد !! وارحمتاه لقرار الصحيفة أين المهرب اليوم وسيف المجلس مصلت فوق رأسى وسوط مدير الصحيفة يلهب ظهرى ؟! إذا لابد أن أكتب فى الصحيفة ولا بد أن يكون لى فى كل عدد مقال ولابد من أن أصطنع بحثا يشوق القراء ولابد — فوق هذا وذاك — من أن أقدم بحثى فى موعد مضروب لاأشذ فيه ولاأتخلف عنه ولاتشفع فيه معاذير ولايجدى فيه احتيال ، حتى لقد فكرت فى سبيل امتداد الأجل المعين للمقال فى أن أرشو مدير الصحيفة بكوب من الشاى ولكن أخوف ماأخافه أن يستجيب لدعوتى وبعد أن يأكل مريئا ويشرب هنيئا يذكرنى بهذا الموعد المضروب ويلح فى طلب المقال

على أنى لا أكتم قراء الصحيفة أنى بدأت أنشط من أجل الصحيفة واضحى فى سبيل الصحيفة ولم يكن مبعث هذا النشاط وتلك التضحية قرارا لمجلس أو فرارا من لوم أو التماسا لحسن أحدوثة وإنما كان صديقى محمد على مصطفى نفسه هو مصدر هذا النشاط والتضحية حقا أن « محمد على » يضرب لنا أروع مثل فى النشاط والتضحية فأنت إذا رأيته يتعقب الكاتبين ويستنهض هممهم لتغذية الصحيفة ، وأنت إذا رأيته يقضى الشطر الأكبر من وقت فراغه فى قراءة كلمات الصحيفة ، وأنت إذا رأيته يقوم بهذا كله فى صبر لاينفد وعزيمة لاتفتر لايسعك إلا أن تشعر فى قرارة

نفسك بالأعجاب والخجل ولايسعك حيال هذا إلا أن تلبي نداء الواجب وتنهض لخدمة الجماعة . حقا — أيها الاخوان — ليس فى وسع امرىء يرى أمثال محمد على مصطفى فى نشاطه وحيويته وتضحيته من أجل الجماعة ثم يتراخى إذا طلب اليه العمل أو يضن إذا كلف البذل .

و « بعد » فماذا عسانى أن أكتب فى الصحيفة ؟ إن ذاكرتى تعج بموضوعات مختلفة متنوعة تتوارد كلها فى وقت واحد حتى لتسد على مسالك التفكير وتكاد تشل قلمى عن الكتابة ولعل اختيار الموضوع اشق من الكتابة فيه ولكنى على كل حال مازلت أومن بأن أجدى الموضوعات على المعلمين هى تلك التى تتصل اتصالا مباشرا بأعمالهم والتى قد يجدون فيها بعض الهدى والرشاد فى تذليل ما يواجههم من مشكلات وما يقوم فى طريقهم من صعاب أما ماسوى ذلك من موضوعات عامة أدبية أو احتماعية فهى عنـــدى فى المرتبة الثانية .

وأنا لاأقول جديدا حين أذكر أن مدرس اللغة العربية من ناحية عمله الفنى قد أصبح فى منزلة لايحسد عليها إذا قيس بزملائه من مدرسى اللغات الأخرى . ذلك أن عملية التدريس فى اللغة العربية مافتئت تقوم على أساس ارتجالى ليس له سند من علم ولا ظهير من تجربة معينة محدودة ولا تأييد من احصـــاء علمى مضبوط . ان مناهجنا الدراسية وكتبنا المقررة وأساليب تعلمنا ونظام تفتيشنا كل أولئك يقوم على الأرتجال ولاشىء غير الارتجال ، أنها تقوم على آرائنا الشخصية وأفكارنا النظرية وملاحظاتنا العامة حقا أن ذكاءنا المجرد يلعب دورا هاما فى توجيه التعليم فى اللغة العربية . وكل عمل يقوم على مثل هـذا هو السر فى أننا حتى اليوم لم نثبت على حال ولم يستقر لنا قرار . فالمفتشون قلقون والمدرسون ناقمون والطلبة بين هؤلاء وأولئك كارهون أن يفيدوا من اللغة العربية إلا بالقدر الضرورى الذى يعينهم على اجتياز الامتحان . واللجان فى الوزارة تؤلف ثم تنفض والقرارات تبرم ثم تنقض والتعليمات تصدر ثم تنسخ والمناهج توضع ثم تعـدل وأساليب التدريس تقترح ثم يتنازع فيها ويختلف عليها ، وليس هـذا كله بعجيب فتلك طبيعة كل عمل

يقوم على الارتجال .

انك لاتجد شيئا من هذا فى أعمال مدرسى اللغات الاخرى فقد وضعت بين أيديهم جميع الوسائل التى تعينهم على القيام بأعمالهم فى شىء من الاستقرار والطمأنينة والثقة . ان سبل العمل أمامهم مفتوحة وطرقه معبدة وغايته جلية واضحة أن لديهم أنواعا من الكتب يضيق دونها الحصر وكلها فاتنة شائقة محببة إلى نفوس النشء وقد قصد بها مؤلفوها إلى غايات لغوية فنية محدودة . إن لديهم أساليب فى التدريس وصل اليها واضعوها بعد دراسات علمية عميقة ثم قدموها إلى مدرسينا جاهزة رخيصة . ان لديهم نوعا من التفتيش يجرى على أسلوب مرن سهل ولكنه وليد دراسة أحكمتها التجربة وصقلها طول الاختبار . كلنا يعرف أن تعليم اللغة الانجليزية مثلا يجرى فى جميع معاهدنا على طريقة (وست) ولكن هل غاب عنا كيف أدخلت هذه الطريقة فى مدارسنا المصرية ؟ وهل نسينا تلك التجارب الرائعة المنظمة التى كانت تجرى تحت رعاية مس (كارتر) وسواها من كبار المفتشين والمفتشات فى بضع مدارس للبنات ؟ هل عزب عن أذهاننا تلك البحوث القيمة التى تناولت طريقة (وست) بالتغيير والتحوير والصقل قبل أن تفكر الوزارة فى تعميمها فى جميع المعاهد ؟

فاين تدريس اللغة العربية من هذا كله ؟ ان بين أيدينا مشاكل جمة ولكن اعجب العجب أن كثيرا منا لايحسون هذه المشاكل ولا يدركون أثرها فى أعمالهم بل أن بيننا عددا من المدرسين يؤمنون بأننا قد أوفينا على الغاية فى تدريس اللغة العربية وأنه ليس فى الامكان أبدع ولا أروع مما كان ولكن صدقونى — أيها الاخوان — حين أقول لكم أن عملنا فى المدارس وبخاصة المدارس الثانوية ملىء بالمشكلات حافل بالصعاب محفوف بالمكاره ، وانه بالرغم من تلك الجهود الجبارة الموفقة التى يبذلها المدرسون فى الوقت الحاضر مازلنا بعيدين كل البعد عن أدنى مراتب الكمال ، وأنه إذا أريد للغة العربية أن تبلغ مايجب أن تبلغه من نفوس الأحداث والشباب وان تملك زمامهم وتستهوى عقولهم وقلوبهم فلا بد من أن نضع مسألة التعليم برمتها موضع البحث والدرس والتجربة .

ومما يدعونا جميعا إلى الاغتباط ويبعث فى نفوسنا الطمأنينة أن رجال التعليم وأولى الأمر فى الوزارة قد بدءوا يدركون شيئا من وجوه المشكلات التى تواجهنا فى تعليم اللغة العربية ، وأصبحوا يعترفون بأن التبعات التى ألقتها الأقدار على كواهلنا فى حياتنا الجديدة هى أشق التبعات فى أعمال التعليم كلها ، فلا يسع أحدا بعد اليوم أن يجحد مايقوم به المدرس من أعباء تكاد تقصم ظهره وتهد كيانه وتسلبه راحته ووقت فراغه .

حقا ان رجال الوزارة قد أصبحوا يقرون لنا بهذا كله ولا ريب فى أن لنا فيه بعض العزاء عما نكابد فى عملنا من عناء وما نلقى فيه من مشقة غير أنهم يكادون يجمعون أيضا على أن الأثر الذى نتركه فى نفوس تلاميذنا مافتىء ضئيلا لايتناسب وتلك الجهود التى نبذلها والأعباء التى ننهض بها . وليس لهذا من تعليل سوى الافتراض بأن أداة التعليم مختلة معتلة فى بعض نواحيها فهل المناهج الدراسية أو أساليب التعليم أو كفاية المدرسين أو استعداد الطلبة أو سوء التوجيه فى التفتيش هل واحد من هذه أو بعضها أو كلها مجتمعة هو موطن الداء وأصل العلة ؟ هذه هى المسألة التى يجب أن نكشف عنها بالبحث والدرس وأن نعالجها بما هو خليق بها من تغيير أو تبديل على شريطة أن يجرى هذا كله عن طريق التجربة المنظمة والاحصاء العلمى الدقيق .

ان فى وزارة المعارف لجنة مؤلفة للنظر فى اصلاح اللغة العربية وقد تناهى الينا من أنبائها أنها تعنى ببحث مسألة التعليم فى جملتها ، وأنها استعرضت فيما استعرضت جل المشاكل التى تواجه المعلم فى الوقت الحاضر وأنها فى سبيل ذلك قد دعت اليها جمعا حاشدا من المدرسين والمفتشين تحدثت اليهم وسمعت منهم كل هذا حسن وكله يبعث فى نفوسنا الاغتباط ويفسح فى صدورنا الأمل فلاشك عندى فى أن اللجنة واصلة بعملها إلى نتائج سيكون لها أثرها البعيد فى عمل المدرس والتلميذ كليهما ولكنى مقتنع كل الاقتناع بأن اللجنة لاتستطيع أن تضمن دوام الأثر لقراراتها إلا عن طريق التجربة والاختبار .فليجرب ماتراه اللجنة من آراء وماتصل اليه من نتائج تجريبا علميا منظما فى مدرسة أو اثنتين وليجر هذا التجريب بواسطة عدد ممتاز من المدرسين وتحت رعاية

ثلاثةأو أربعة من صفوة المفتشين وعلى ضوء النتائج فى هذه التجارب نرتب أعمالنا ونفرضها على المدرسين جميعا ليأخذوا بها . هذا هو الأسلوب العلمى المنظم للبحث فى كل ضروب الاصلاح فى التعليم وفى غير التعليم .

أجل — أيها الاخوان — لقد حان الوقت لأن ندرك أن هذا العصر الذى نعيش فيه هو عصر تجربة واختبار واحصاء وأنه لااستقرار لنظام ولا بقاء لعمل ولا دوام لمقترح ما لم تكن دعامته التجربة المنظمة والاحصاء العلمى المضبوط وتعليم اللغة العربية ليس بدعا فيجب أن يخضع لما تخضع له كل ضروب الاصلاح إذا أردنا أن يكون الاصلاح فى اللغة العربية اصلاحا مستقرا ثابتا يقنع المدرسين وتطمئن اليه نفوسهم .

لقد قلت وما زلت ألح فى القول بأن بين أيدينا مشاكل جمة لا يغنى فى حلها الذكاء المجرد والآراء النظرية والتجارب أو الملاحظات العامة بل لابد فيها من التجريب المنظم ولو طال وقته واتسع مداه فكلنا يعتقد أن تدريس البلاغة مثلا على الصورة التى يجرى عليها حتى الآن ليس فيه غناء وأنه إذا أريد أن يتذوق الطلبة الأسلوب العربى وأن يدركوا مافيه من روعة وجمال وجب أن تتجه بهذه الفنون الأدبية اتجاها جديدا يكفل تحقيق الغاية منها .

وكلنا يحس أن الروابط بين مطالعة التلاميذ ومحفوظاتهم من ناحية ومنشآتهم من ناحية أخرى مفككة منحلة فالمادة اللغوية التى ينهلها الطالب من كتب المطالعة والنصوص والمحفوظات تظل راكدة ميتة لأنها بعيدة كل البعد عما يكتب فيه وقد تكون هذه المادة — فى أحسن الحالات — مادة قيمة واسعة ولكنها كالجوهرة المطروحة المجفوة فى جوف البحار لايستفاد منها ولا ينتفع بها فاذا كتب الطالب نزل بأسلوبه إلى فهاهة العامة أو قريبا منها ومن ثم وجب أن نفكر فى خطة جديدة تقوم على توثيق الروابط وتأكيد الصلات بين دروس المطالعة والمحفوظات والانشاء إذا أريد أن يستفيد الطلبة مما يقرءون ويستظهرون بحيث يتجلى أثره فى كتاباتهم .

ولقد أصبحت مسألة التصحيح فى الانشاء كذلك أعقد العقد واحدى الكبر فى

تدريس اللغة العربية فكلنا يعلم أن تصحيح الانشاء أشق واجب فى أعمال المدرس بل أشق واجبات التعليم كلها فلو أن مدرسا أضيف إلى جدوله حصص بقدر مالديه من كراسات على أن يعفى من هذا التكليف الشاق لـكان من المحتمل أن يقبل هذا راضيا مسرورا فهل هناك من المدرسين من يطالبنى بدليل على أن تصحيح الكراسات عمل يستفرغ جهد المدرس ويستنفد حيويته ونشاطه ويحطم من أعصابه ويهد من كيانه ، أنه عمل يكد الذهن ويقض المضجع ويسلب الوجوه بشاشتها ومرحها والعقول اتزانها وصفاءها ، ولـكنه فى الوقت نفسه أهون الأعمال شأنا فى نظر التلاميذ وأقلها فائدة لهم وأضعفها أثرا فى تقويم المعوج من عباراتهم وتصحيح الفاسد من أفكارهم وأخيلتهم . حقا ان هذا العمل الشاق الذى يشغل جميع وقت المدرس وينغص عليه حياته لايعدو أن يكون فى نظر التلاميذ عملا آليا هينا لايعنيهم منه إلا ذلك الرقم الأحمر يتناولونه سراعا بأطراف ألحاظهم ثم يطوون الكراسات طيا ويقذفون بها فى أجواف قماطرهم . فماذا فعلنا حيال الانشاء وتصحيح الكراسات ؟ هل فكرنا فى خطة واضحة مثمرة تخفف من هذا العبء عن المدرس وتضمن فائدة جوهرية للتلميذ ؟ وهل زاد عملنا فى الانشاء وتصحيح كراساته على أن قدمنا فى سبيله الضحايا وقربنا القرابين كما كان يصنع قدامى اليونان مع إله الحرب والضرب والانتقام ؟ ولـكن هل استفاد الانشاء من عملنا هذا شيئا يذكر ؟ وهل استطعنا أن نحل عقدة فى ألسنة التلاميذ أو نمحو حبسة عن أقلامهم أو نعالج خطلا فى أحكامهم أو نصحح فاسدا فى أفكارهم أو حدبا فى خيالهم ؟ أرأيت لو أن مدرسا تناول قلمه الأحمر وأخذ يصول به ويجول بين السطور فلم يدع كلمة نابية إلا غيرها ولا همزة قطع أهملت إلا سجلها ولا عبارة ركيكة إلا أقام أودها وأحكم نسجها ولافقرة مهلهلة إلا قوى روابطها وهذب حواشيها ولا فكرة خاطئة إلاسدد معانيها ووضح مراميها لو أن مدرسا صنع هذا كله فيما بين يديه من كراسات أكان هذا يقدم أم يؤخر فى قدرة التلاميذ على الكتابة ؟ لا — أيها الأصدقاء — إنى لأزعم أنه ليس بيننا رجل واحد يعتقد جادا أن العناية بتصحيح الكراسات - أيا كان مبلغ هذه العناية - من شأنها أن تجعل أقلام التلاميذ أوضح بيانا وألسنتهم أفصح مقالا ذلك أن القدرة

على الكتابة والتحرير لاتتصل بالتصحيح إلا برباط واه ضعيف وان شئت فقل ان تصحيح الكراسات لايعدو أن يكون توجيها لهذه القدرة لاسببا لها كما يعتقد كثير من الزملاء الأفاضل وأشعر بأننا قد ضحينا بالأسباب الحقيقية لتكوين هذه القدرة فى التلاميذ فى سبيل العناية بتصحيح الكراسات حسبك أن تنعم النظر فى الكراسات لترى أنه — بالرغم من هذا الجهد الشاق المضنى الذى يبذله المدرس فى التصحيح — يكاد يكون أول موضوع يبتدىء به الطالب كآخر موضوع ينتهى اليه وان مادة الطالب لاتزيد على بضع مئين من ألفاظ وعبارات عادية تتكرر فى كل مقال وتبدو فى كل موضوع .

وأعود فأقول ان تعليم الانشاء أو تصحيحه قد أصبح عقدة العقد ومشكلة المشكلات فى تعليم اللغة العربية فقد كان التصحيح عملا شاقا فحسب ولكنه قد أضحى اليوم عملا رهيبا مخوفا محفوفا بالمكاره لأننا نلمح فيه ما يمكن أن ينتظرنا من تنزيل أو تشريد فهل من سبيل إلى الحل ؟ ذلك ما سأحاوله فى الأعداد التالية فإلى اللقاء .

زكى المهندس
وكيل دار العلوم

نشأة الكلام

الدكتور ابراهيم انيس

منذ أحس الانسان أن له أصواتا يتخذها وسيلة للتعبير عما يجول بخلده ولايصال أفكاره وخواطره إلى غيره من بنى جنسه وهو يسائل نفسه كيف نشأت تلك الأصوات ونمت حتى تكون منها مايسمى باللغات ! فليس عجيبا إذن أن تروى لنا فى ثنايا كتب التاريخ والأدب محاولات فى هذا الشأن لفلاسفة اليونان ثم من بعدهم بقرون عدة لمؤلفى العرب من أهل اللغة .

وتبدو المسحة الدينية أو بعبارة أدق يبدو أثر ماورد فى الكتب المقدسة فى تلك المحاولات القديمة . فقد توسع هؤلاء وهؤلاء فى تفسير آيات من التوراة والقرآن أشارة إلى نشأة اللغة الانسانية وجعلوا من تلك الآيات أساسا لنظرياتهم. ولن أعرض هنا لرأى من أسسوا نظرياتهم على أدلة نقلية مصدرها الكتب المقدسة لأن ما استندوا إليه يحتمل تأويلا وتفسيرا يمكن أن يتفق مع اتجاه العلماء فى أيامنا هذه .

ولما جاء القرن التاسع عشر شهدت البحوث اللغوية فيه عصرا زاهيا .

وكان بين تلك البحوث بل كان أكثرها تشويقا وجاذبية للنفس البحث فى النشأة اللغوية .

وليس بين البحوث اللغوية ما نال من وقت العلماء وجهودهم مثل البحث فى نشأة اللغة فقد عالجه عدد كبير منهم فى مجلدات ضخمة لم تنتج لنا آخر الأمر إلا آراء قابلة لنقد كثير . وأدى هذا إلى أن كثيرا من العلماء انصرفوا عن البحث فى هذا الموضوع .

وقبل أن أعرض إلى الاتجاه الحديث بين علماء القرن العشرين حول هذا

الموضوع المعقد الذى يبدو أحيانا مستحيلا أود أن أشير هنا فى اقتضاب إلى تلك النظريات المختلفة التى جاءنا بها علماء القرن التاسع عشر . ولشهرتها فى معاهدنا العلمية ، ومعرفة كثير منا بها أرى ألا أعرض لها بتفصيل أو تحليل لأنها أصبحت فى عداد النظريات التى يجب أن تذكر فقط كحلقة من حلقات تاريخ البحوث اللغوية.

وأشهر نظريات القرن التاسع عشر ثلاث :

(١) تلك النظرية التى تنادى بأن اللغة لم تكن إلا نتيجة تقليد لأصوات طبيعية صدرت عن الانسان نفسه كما سمعها الانسان من الحيوان وفى مظاهر الطبيعة .

(٢) النظرية الثانية هى تلك التى تقول إن اللغة ليست إلا نتيجة لغريزة انسانية قديمة كانت خاصة بالانسان الأول ، وتقضى هذه الغريزة بأن كل أثر خارجى له صدى صوتى يصدر عن الانسان كما يحدث من ظواهر جسمانية كامتقاع الوجه أو اضطراب القلب نتيجة آثار خارجية وبطريقة غرزية لاسلطان للانسان عليها .

(٣) وتقضى النظرية الثالثة بأن كل مجهود عضلى شديد يقوم به الانسان يخف حمله حين يتنفس المرء بشدة ويكرر تنفسه . ويتبع هذا التنفس الشديد أن الأوتار الصوتية تتذبذب وتصدر الأصوات التى تتطور فيما بعد إلى لغات .

تلك هى أهم نظريات القرن التاسع عشر فى صورة مقتضبة لأننا لم نرم هنا إلى شرحها وتحليلها فهى معروفة للكثيرين منا . والذى يمكن أن يعاب عليها جميعا هو أنها تفسر لنا نواحى محدودة للغة وتعجز عن تفسير أهم نواحى اللغات ومظاهرها . كما أنها تعطى الفرد كل الأهمية فى تكوين اللغة ولا نكاد نلمح فيها أثر المجتمع فى هذا التكوين رغم أننا نعلم أن اللغة ليست الا مظهرا اجتماعيا . وفوق هذا وذاك فأصحاب هذه النظريات فرضوا علينا أن نتصور معهم وجود مجتمع انسانى صامت فيه نشأت اللغة !!.

لم تجد إذن تلك الوسيلة التى لجأ إليها علماء القرن التاسع عشر حين بدأوا تفكيرهم فى نشأة الكلام بطريقة قياسية ففرضوا أول الأمر وجود مجتمع انسانى ثم لعب خيالهم الخصب فى تصور نشوء لغة فى هذا المجتمع .

أما الاتجاه الحديث بين علماء اللغات فى البحث فى هذا الموضوع فهو أنهم يميلون إلى

الطريقة الاستنباطية بمعنى أنهم يبدأون البحث فى اللهجات الحديثة . ثم ماتفرعت عنه من لغات قديمة ثم الأقدم وهكذا راجعين إلى أقدم عناصر لغوية رواها لنا التاريخ فى صورة نقش من النقوش . وهم يرجون بهذا أن يستنبطوا القوانين العامة التى خضعت لها اللغات فى تطورها فى القرون التاريخية .. ومن تلك القوانين بعد التأكد من صحتها جملة وتفصيلا يمكن أن نصور لأنفسنا ما كانت عليه اللغة فى عصور ماقبل التاريخ تصويرا أقرب إلى اليقين من تلك النظريات التى ذكرتها آنفا

وهم أيضا يستعينون فى بحثهم بلغة الأطفال مع شىء من الاعتدال وبلا مغالاة فى الاعتماد عليها لأن الطفل حين يبدأ المرحلة التقليدية لأصوات من حوله يختلف كل الاختلاف عن الانسان الأول . فالطفل يقلد لغة كاملة النمو وحوله من الناس من يحسن تلك اللغة ويتكلم بها سليقة . والمحدثون يقصرون مدى انتفاعهم بلغة الطفل على تلك المناغاة التى يتسلى بها الأطفال قبل تمام السنة الأولى من سنهم أو تلك الأصوات الوجدانية غير الأرادية التى تصدر من الطفل حين تلبسه بحالة انفعالية كالخوف والغضب والسرور .. الخ .

وليس بصحيح أن مراحل كسب اللغة عند الأطفال تمثل مراحل نشأتها عند الانسان الأول . فكما أن المراحل التى يمر بها الغلام فى تعلمه اللعب على « البيانو » مثلا لا يعقل أنها تمثل لنا التطور التاريخى للموسيقى كذلك لا يعقل أن مراحل نمو اللغة عند الطفل تمثل مراحل نموها عند الانسان الأول اللهم إلا تلك الأصوات الوجدانية التى تصدر من الطفل وليس للبيئة الاجتماعية التى تحيط به سلطان عليها .

ويستعين المحدثون كذلك بلغات الأمم الأولية فى بقاع المعمورة تلك اللغات التى من غير شك تمثل مراحل لغوية قديمة تشبه فى بعض الأحيان مراحل بعض عصور ماقبل التاريخ .

على أن العماد الأول للمحدثين هو التطور التاريخى لما نعرفه من اللغات معتمدين فى هذا على مادون فى كل العصور من آثار لغوية بما فى ذلك تلك النقوش التى عثر عليها قديما وحديثا . وهم يرجون بهذا أن يصلوا عن طريق مقارنة تلك الآثار اللغوية الى استنباط القوانين العامة التى خضعت لها اللغات فى تطورها . وتلك القوانين

تعين على تصور مراحل تطور اللغات فى عصور ما قبل التاريخ بل وفى عصر نشأة الكلام .

وليس المقصود بالقوانين اللغوية ماهو معروف من معنى القانون حين يطبق على المظاهر الطبيعية كقانون الجاذبية مثلا بل كل مايطمع فيه اللغوى هو أن يرى قانونه ينطبق على الغالبية العظمى من اللغة التى يبحث فيها . ولهذا قد يشذ قليل من الأمثلة عن قانونه لظروف لغوية خاصة لم يهتد الى سرها أو الى الكشف عنها .

وقد استطاع المحدثون استنباط بعض تلك القوانين بصفة مؤكدة وخفى عليهم بعضها وذلك لأن عمادهم فى المقارنة كان دائما مادون من آثار لغوية ،والمتفق عليه بين علماء اللغات أن الرسم وسيلة ناقصة لتصوير الأصوات اللغوية وأن هناك دائما وفى كل العصور بعض الفروق بين لغة الكتابة ولغة الكلام . فلو أن بين أيدينا الآن اسطوانات سجل عليها نماذج لغوية للعصور التاريخية تسجيلا صوتيا لأدى هذا إلى ثورة فى البحث اللغوى ولدعا كذلك إلى تأكيد تلك القوانين اللغوية بصورة لاتقبل الشك بل ولزاد عليها تفصيلات ربما تفوق تصورنا وخيالنا .

والعصور المستقبلة ستلقى عهودا أزهى فى البحوث اللغوية . وعلماء اللغات فى المستقبل لن يجدوا أنفسهم فى مجال الظن أو الترجيح بل فى مجال اليقين . فسيبنون نظرياتهم على سجلات صوتية للانسان فى كل لغة .

بل لايبعد أن العصور المستقبلة تشهد انقراضا لتلك الوسيلة الناقصة التى سجلت بهـــا أصواتنا اللغوية أعنى الكتابة أو الرسم فيحل محلها التسجيل الصوتى على اسطوانات يعم استعمالها بين الناس . ولعل اختراع « الديكتافون » يبشرنا بهذا العصر الذهبى !!

فطن المحدثون الى أن معرفتنا بلغات الأمم القديمة فى العصور التاريخية معرفة غير كاملة لأن ماروى لنا منها ليس الا قلا من كثر هذا الى أن الرسم ومافيه من نقص قد قلل بعض الشيء من قيمة ذلك القدر الذى روى لنا . ولكن لم يمنعهم هذا من عقد المقارنة بين اللغات واستنباط القوانين باذلين فى هذا جهودا علمية جبارة لعلهم يصلون الى ماينشدون من تصوير اللغة الانسانية الأولى على أساس تلك القوانين

العامة التى خضعت لها اللغات فى تطورها فى العصور التاريخية .

وقد قورنت اللغات الأوربية الحديثة بما تفرعت عنه من لغات قديمة. فقورنت الانجليز الحديثة بأصلها القديم « Gathnic » . ثم الفرنسية والايطالية والاسبانية باللاتينية . وبعض اللهجات الهندية الحديثة بالسنسكريتية وهكذا تمت المقارنة . بين الحديث والقديم من اللغات مصورا لنا فيما دون من آثار لغوية .

وكذلك قورنت اللغات السامية القديمة بما تفرع عنها من لهجات حديثة . وإن كنا لم نقطع فى هــذه المقارنة الشوط الذى قطعه علماء الغرب فى مقارنة اللغات الهندية الأوربية .

والقوانين العامة التى وصل اليها العلماء بمقارنة اللغات منها مايتعلق بالناحية الصوتية ومايتعلق ببنية الكلمة ومايتعلق بتركيب الجملة .

الأصوات

لاحظ العلماء أن اللغات فى تطورها تميل عادة إلى السهولة فى نطق الاصوات ليكون المجهود العضلى أقل فى صدورها . وقد أدى هذا الى أن الاصوات الصلبة المعقدة قد انقرضت أو هى آخذة فى الانقراض من لغات البشر . وفى معظم اللغات الآن تتكون الأصوات بخروج الهواء من الرئتين مارا فى طريقه بالأوتار الصوتية ثم أقصى الفم ثم فراغ الفم ثم الشفتين حتى تنتشر فى الفضاء .

أما تلك الأصوات التى تتكون بالطريقة العكسية لما تقدم والتى تبدأ مع تنفس الهواء كما يسمع عند المص أو حين يتلذذ المرء بطعم شىء فلم يبق لها أثر إلا فى بعض اللغات الاولية كتلك الأصوات المعروفة فى لغات وسط أفريقيا وجنوبها والتى تدعى « clichs »

وفى عصورنا التاريخية نلاحظ الميل إلى هذا فى تطور اللغات السامية فقد انقرضت فى الحديث منها بعض الاصوات الصعبة « كالغين والذال والظاء والضاد » كما هو الحال فى العبرية والسريانية مثلا . وقد احتفظت العربية بهذه الأصوات لأنها انعزلت فى البيئة الأصلية للغات السامية وهى جزيرة العرب . فى حين أن السريانية والعبرية كما رويتا لنا أصابهما بعض التطور الصوتى فى بيئتهما الجديدة . هذا بعض

مايجعلنا نرجح أن اللغة العبرية كما رويت لنا تمثل طور اللغات السامية أقدم مما تمثله اختاها العبرية والسريانية . على أن بعض أصوات اللغة العربية ، قد انقرضت من لغات التخاطب التي تفرعت عنها والتي يتكلم بها الآن في مصر وغيرها من الممالك العربية .

مايتعلق ببنية الكلمة :

لوحظ هنا ميل عام في جميع اللغات الى تقصير الكلمات والتقليل من مقاطعها . والعلماء الآن يرجحون الرأى القائل ان الكلمات بدأت متعددة المقاطع وتطورت حتى وصل بعضها الى مقطع واحد . وهم لهذا يرجحون أن لغات ماقبل التاريخ ملئت بكلمات طويلة معقدة الأصوات .

وقد يلقى ضوءا على هذه الظاهرة أوزان الفعل التي رويت لنا في اللغة العربية والتي لانظير لها في اخواتها السامية ، والتي لاتكاد تعثر عليها في شواهد لغوية محققة نسبتها مثل اخشوشن اعلوط احرنجم افرنقع ... الخ . فمن المرجح أن مثل هذه الأوزان كان شائعا في العربية البائدة .

كذلك لاحظ المحدثون أن اللغات القديمة بوجه عام تشتمل على أوزان أكثر من الحديثة في الفعل والوصف والاسم . فاذا قورنت الاوزان العربية للفعل مثلا بما روى لنا من أوزان العبرية والسريانية ، اتضح لنا وجه آخر للتدليل على احتفاظ العربية بعناصر قديمة أكثر مما في أختيها العبرية والسريانية اللتين لو أتيح لهما أن تظلا لغة كلام حتى الآن اتخلصتا من كثير من أوزانهما . ويكفى هنا أن أشير إلى ما اختصت به العربية من أوزان قياسية أو تكاد تكون قياسية للدلالة على أمور خاصة : كجموع التكسير وأفعل التفضيل ومصادر الثلاثى المتعددة . كذلك نحن نعلم أن لكل فعل متعد في العربية صيغة للتعبير عن البناء للمجهول ولم يبق من كل هذا إلا أثر ضئيل في أخوات العربية من اللغات السامية . فالعبرية والسريانية مثلا يعبران بالفعل المطاوع عن البناء للمجهول . وليس المقام هنا مقام حصر العناصر القديمة التي احتفظت بها العربية فهذا حديث طويل ربما كان من المستحسن أن يفرد له مقال خاص .

ما يتعلق بتركيب الجمل

لوحظ هنا أن الجمل بوجه عام فى تطورها تميل إلى ما يمكن أن يسمى بالتحليل واستغلال عناصر الجملة، وانفصالها بعضها عن بعض. فى اللغات القديمة تكونت الوحدة اللغوية فى الجملة من عناصر متعددة لوحظ أنها مع مرور الزمن تنفصل وتكون وحدات مستقلة. فأمثال تلك العبارة التى وردت فى القرآن «أنلزمكموها» التى تشتمل على ستة عناصر (أداة الاستفهام + فعل + اسناد إلى المتكلمين + ضمير المفعول للمخاطبين + واو الاشباع + ضمير المفعول للمفردة) لا تكاد توجد فى اللغات الحديثة بل يغلب أن يعبر عن معظم العناصر السابقة بوحدات لغوية مستقلة. وما يقال فى «أنلزمكموها» يقال أيضا فى «فسيكفيكهم».

والأمثلة التى يوردها المحدثون لتوضيح ما تقدم من اللغات الهندية الأوربية لاحصر لها ولكنى أكتفى هنا لضيق المقام بذكر قليل من الأمثلة من اللغات السامية.

كذلك لاحظ المحدثون أن اللغات بوجه عام فى تطورها تميل إلى الاطراد والقياس. فالتعبير عن التأنيث والتذكير كان فى لغات ماقبل التاريخ بكلمات خاصة بالمؤنث وأخرى بالمذكر. وبقايا هذا لاتزال فى اللغات الحديثة أمثال «أب» مؤنثه «أم». «حصان» مؤنثه «فرس» وهكذا. وأمثلة الصيغ السماعية فى اللغة العربية معروفة لاتحتاج إلى بيان. كما أن المسند اليه فى اللغة العربية يختلف موضعه فى الجملة فأحيانا يسبق الفعل ويسمى مبتدا واحيانا يليه فيسمى فاعلا ووظيفته فى الحالين هى هى. فاذا قارنا هذا بلغة الكلام عندنا الفينا موضعا واحدا للمسند اليه يطرد هذا الموضع فى كل جملة. ولغة الكلام ليست إلا تطوراً للغة العربية.

من كل ماتقدم وصل المحدثون الى قانون عام للتطور اللغوى هو: «تميل اللغات بوجه عام فى تطورها الى التقليل من المجهود العضلى فى نطق الأصوات والى فصل عناصر الجملة وقلة الاوزان والاطراد».

أما من ناحية المفردات فقد لوحظ أيضا أنه كلما تقدمت اللغة كانت أقدر على المعنويات. والعلماء يسوقون هنا أمثلة لاحصر لها فى عليه مفردات اللغات فى

الامم الأولية فى وسط افريقيا وجنوبها مثلا . كما انه كلما تقدم الزمن باللغة قلت فيها المترادفات التى تعبر عن المحسوسات . وقد ملئت كثير من اللغات القديمة التى رواها لنا التاريخ بعشرات من الكلمات المترادفة مما يجعلنا نرجح أن لغات ماقبل التاريخ انتظمها طوفان من تلك المترادفات ورغم هذا قصرت عن التعبير عن كثيرا من المعانى التى دعت إليها حياة المدنية . وقد ترتب على هذا ان كثيرا من الكلمات المحسوسة التى كانت تخاطب القلب قبل العقل اخذت ثوبا معنويا وبهذا أصبح التعبير عن الفكر عملا آليا أو شبه آلى لا يميل كثيرا إلى الناحية الشعرية من اللغة . ولهذا سبقت اللغة الشعرية لغة النثر مما جعل العلماء يصورون لنا لغات ماقبل التاريخ أقرب إلى الشعر منها إلى النثر مملوءة بألوان المجازات والاستعارات . وقد ايدهم فى هذا الرأى مايشاهد الآن بين لغات الأمم الاولية .

نشأت اللغة إذن فى صورة كغناء الطيور وضجيج الحيوان وصياح الأطفال كانت تصدر عن الانسان لا لأيصال افكاره لبنى جنسه بادىء الامر بل للترفيه عن دافع نفسى يجعله يصوت دون ملاحظة لما حوله من بنى جنسه ثم تطورت الى غناء او مايشبه الغناء فى جمل مملوءة بالاصوات قليلة المعانى او مجردة عنها ، جمل معقدة العناصر لا كوسيلة للتفاهم بل لتمرين عضلات الصوت لمجرد التسلية . فلما بدأ الانسان يستخدم تلك الاصوات التى ظل يلهو بها زمنا طويلا فى التفاهم مع غيره بدأ بهذا مانسميه لغة .

ولكن كيف انتقلت تلك الاصوات التى لامعنى لها والتى لم يقصد بها إلا لمجرد التسلية الى مرحلة المعانى فاتخذت كل منها معنى ؟ الكلمات التى نلحظ فيها رابطة بين صوتها ومعناها تفسر لنا جزءا ضئيلا من مادة اللغات ولكنها تعجز عن تفسير الجزء الأعظم منها . فلنبحث إذن فى الكلمات التى لانلحظ فيها رابطة بين المعنى والصوت . اننا اذا علمنا ان الكلمات الاولى كانت اميل الى المحسوسات استطعنا ان نتصور أن أول ما اتخذ معنى هو تلك الكلمات الأعمق فى المعانى الحسية . وهذه من غير شك هى اسماء الأعلام . ونحن نعرف من المراحل التاريخية للغات كيف سهل تحول الأعلام الى كلمات عامة تعبر عن معنى عام .

فالأصوات التى صدرت عن الجماعات الانسانية الاولى ربطت بالعمل الجمعى

نفسه وصارت كعلم له تكررت كلما تكرر العمل نفسه أووجدت ظروف مماثلة .فاذا تصورنا أن جماعة انسانية فى عصر نشأة اللغة قتلوا حيوانا مفترسا مثلا .وفى لحظة احتفالهم بهذا النصر رددوا فى شكل جمعى اصواتا خاصة أصبحت تلك الاصوات علما على هذا الحادث تتكرر متى تكرر الحادث نفسه أو شبهه وينتقل هذا المعنى الى غير هذه الجماعة كما تنتقل معانى الكلمات الى أطفالنا حين يسمعون الصوت ممن حولهم ويرون ظروفه فيربطون بين الاصوات ومدلولاتها التى فهموها مما أحاط بالعمل من ظروف . وقد يخطئون الفهم فينشأ تغيير فى الأصل ربما انتقل بالصوت الى معنى آخر أو معنى قريب منه وهكذا .

نشأت اللغة إذن كتعبيرات شبه مغناة ليست محللة إلى عناصر وقد وصفت بها حوادث خاصة . ومثل هذه التعبيرات بدأت مستقلا بعضها عن بعض وكوحدات كلامية تشبه الجمل ولكن غير كافية للتعبير عن الفكر ثم تطورت فتحللت عناصر جملها واتصلت الوحدات الكلامية بعضها ببعض ومالت اخيرا إلى الوضوح والاطراد ولكن لم تصل بعد لغة من لغات العالم الى مستوى الكمال الذى ينشده عالم اللغة .-فالمثل الاعلى للغة هو تلك التى تصور نفس المعنى بنفس التعبير او مايقرب منه فى اطراد ووضوح ومع انسجام بين المعانى والاصوات وسهولة فى التعبير عن كل دقائق المعانى فى الحياة . ؟

ابراهيم أنيس
المدرس بدار العلوم

تحت سماء يثرب

للأستاذ خلف القاضي

المنظر الأول || « جماعة من الزعماء والأحبار ، يمثلون طوائف اليهود ، في يثرب ، يتحادثون في أمر لهم ، ويتداورون في شأن محمد ، وقد علموا بهجرته إلى مدينتهم .... »

حيي بن أخطب : يامعشر يهود يثرب ! . أعرفتم لماذا نجتمع اليوم ؟ .

ابن الأشرف : نعم ! . لنتحدث في أمر محمد ! ...

حيي : أو تقسمون بالتوراة على أن ندافع عن اليهود ، ونحارب محمدا ؟

عبدالله بن سلام : أو تخافون محمدا ، على اليهودية ؟ .

مخيرق : وكيف ؟ . وهو يدعو إلى التوحيد ، ويحارب الوثنية ، ويؤمن بالبعث .

كعب بن أسد : لسنا نخشى محمدا . وإنما نشفق أن ينتقل النفوذ والسلطان إليه ... إلى أولئك النفر من المهاجرين .

عزير : وأبي بن سلول ؟ كيف يرضى ذلك ؟ كيف يخضع للتطورات الجديدة ؟ .

ابن أبي الحقيق : لن يرضى أبي بالوضع الذى تكرهه الظروف على مواجهته . فهو سيد الخزرج ، وقومه ، عقدوا له الخرز ، ليجعلوه ملكا على يثرب !

عزير : إن حظ هذا الرجل لسيء .أكذلك؟ قبل أن يتبوأ العرش ،ويلبس التاج ، يعترضه هذا المنافس الخطير ، ليسلبه التاج والأمل !

فنحاص : ماأراه يتقبل الدين الجديد ، أو يخضع لتعاليمه !!

لبيد بن أعصم : بلى ! . فان عبد الله رجل طموح ، وإنه ليعرف أين يضع نفسه ، ويقاوم صاحبه ما استطاع

أزار : لا . بل أراه رجلا كيسا ، فيه دهاء وروغان ، وما أظنه إلا سيستقبل الدين الجديد ، ولكن يؤمن بلسانه ، ويكفر بقلبه ! .

حيي بن أخطب : لقد كان رئيس الخزرج ، وأراه سينال حظا أوفر ، لو تم الغلب لمحمد ! .

فنحاص : ان حب الرياسة ، داء قديم فى الانسان ، فسوف يدبر ويكيد ، ويقيم العراقيل ، ويقاوم هذه الدعوة ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولكن ... من وراء ستار ..

حيي بن أخطب : لقد ابتعدنا عن الطريق ، فلنأخذ فى شأن اليهودية ، وموقف محمد منا ! .

أزار : إننا لن نترك الزمام ، يفلت من أيدينا ، فسنقاوم محمداً بالذهب إذا فكر فى توجيه دعوته إلينا . وسنربى له فى المال إذا احتاج إليه محال أن يتقبل الربا . فان دينه يحرمه .

عبد الله بن سلام : وأنت يابن الأشرف ! ماذا ترى ؟ .

ابن الأشرف : سأحاربه بالسيف واللسان ، سأهجوه بالشعر ، وأنضم الى أعدائه من قريش ، وأهيج القبائل لحربه ، وأصد دعوته فى كل واد !! .

مخيرق : يالك من ظالم ! ان محمدا ليؤمن بإلهك : يتفق مع اليهود فى التوحيد وهو اسماعيلى من ولد ابراهيم ، فما ينبغى — ونحن بنو يعقوب بن ابراهيم — أن نحارب ، ونصد عنه . ونحن منــــه أبناء عمومة ، وأخوان لأب !!!

حيي بن أخطب : إننا نخاف على أنفسنا ، ونخاف على اليهودية من محمد ، نخاف أن نضطهد فى يثرب ، كما فعل فرعون ، مع قومنا فى مصر ، ذبح الأبناء ، واستحيا النساء !! .

كعب بن أسد : بل نخاف أن يفعل بنا ، كما فعل « بختنصر » مالك بابل ، يوم حاصر

القدس ، ودمر المعبد ، وأخذ اليهود أسرى إلى بلاده ، فقضى على ملك يهوذا !!

عبدالله بن سلام : هذا قانون الغالب ، ودستور المنتصر ، من الملوك والفاتحين ... فى الشرق والغرب .

ألم يفعل ذو نواس « المتهود » ملك اليمن ذلك حين خير نصارى نجران ، بين اليهودية والقتل ، فاختاروا القتل ، فخد لهم الأخدود ، وحرق من حرق بالنار ، وقتل بالسيف من قتل ؟ !

حي بن أخطب : (ساخرا) أراك حفظت شيئا — يامخيرق — من قرآن محمد ! ؟

مخيرق : نعم . والله ! فقد سمعت من أصحابه رجلا ، يقول فى صلاته : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد »

شمويل بن زيد : وهل ترى محمدا — وهو نبى — يفعل مايفعل قواد العسكر ؟ . أتراه يحرق التوراة ، ويدوسها ، كما فعل الرومان ، حين غلبوا اليهودية فى أورشليم ؟ !

مخيرق : لا ! وانه ليكره سفك الدماء فهو مصلح وحاشا أن يكون سفاحا ، وعادل تنزه أن يكون طاغية . أنه بالمؤمنين رءوف رحيم . أما اذا رأيتم أن تنقضوا له عهدا ، أو تنكثوا له حلفا ، فانه سيحاربكم ويقسو عليكم ، بل يجلوكم عن دياركم ، طوعا لأمر الله ، وتمشيا مع سياسة الاسلام .

أزار : انكم تسرفون فى توهم قوة محمد ، فلن يستطيع هذا الطريد ، أن تكون له القوة ، التى يحارب بها قريشا فى مكة ، وينقلب على اليهود فى يثرب .

حيى بن أخطب : صدقت ياأزار ! فان الأوس والخزرج ، مختلفان ، وبينهما ثارات

قديمة ، وأحقاد موروثة ، من يوم بعاث ،فالخزرج يضمرون العداوة للأوس ، وينتظرون اليوم الذى يثأرون فيه من خصومهم ،أفتراهم ينسون ما بينهم ، من أجل محمد ؟

مخيرق : نعم ! سينسون ما بينهم من أجل محمد ، وسيؤلف بينهم الدين الجديد ان الاسلام لا يعرف فضلا لقبيلة على قبيلة الا بالجهاد والعمل ، ولا الفروق الاجتماعية ، التى كانت بين العشائر فى الجاهلية ! ! .

عبد الله بن سلام : يامعشر يهودا :

انكم لتضمرون العداوة ، لغير عدو ، ان محمداً يسالمكم ، فهو أبدا يذكر موسى وابراهيم والتوراة ، ويمجد ماضى اسرائيل .

أزار (ساخرا) : أعندك أيها الحبر ، ماتحكيه عن ذلك من قرآن محمد ، يؤكد هذا الرأى الغريب ؟

مخيرق : بسم الله الرحمن الرحيم : قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى !

حيى بن أخطب : لقد صبأت يامخيرق ! . وما أراك إلا داعية لمحمد ، فكيف بالله سولت لك نفسك ، أن تهجر دين آبائك وأجدادك ؟

عبدالله بن سلام : لم يصبأ مخيرق ، ولم يهجر دين أبيه ، إننا ومحمدا ، على دين واحد ، هو دين أبينا ابراهيم ، وأنتم الذين حرفتم الكلم ، وبدلتم فى التلمود!!

ابن الأشرف : ماذا أسمع ؟ وأنت أيضا أيها الحبر ؟ ! .. أكفرا بعد ايمان ، فى مجلس السادة من قومك ؟ ! ..

لبيد بن أعصم : نعم ! وانه مع ذلك ، ليحكى لنا من قرآن محمد ، مايحاول به أن يغير من ديننا ! !

عبدالله بن سلام : بسم الله الرحمن الرحيم :

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ،

حيي بن أخطب : « يهم بضرب عبد الله بن سلام »

فنحـــاص : « يقف فى طريقه »

لاتفعل ! انه سيدك ورئيسك ! .

كعب بن أسد : دسيسة ! ! إنه يحاول أمرا خطيرا ، لقد كاد يفسد علينا أمرنا ، وما اجتمعنا له ، فى هذا المكان !

مخـــيرق : يامعشر يهود ! :

لقد انتظرتم المسيح زمنا ، فلما جاء ، كفرتم به ، ولعلكم ما تزالون فى انتظار المسيح الثانى . وهيهات ، هيهات ! ! . .

حيي بن أخطب : لقد جاوزت حد الكفر ، إلى التعصب لمحمد ، والدعوة لدينه ، والدفاع عنه ، أى جريمة تقترف ، ضد قومك يامخيرق ؟ !

مخـــيرق : أجل ! إننى لمؤمن بمحمد ، وإنه النبى المنتظر ، هكذا تقول توراتكم: وقد آن أن تذوب اليهودية فى الاسلام ، وأن نعترف ..

حيي بن أخطب : إنك مسلم أكثر من عمر ، وصديق لمحمد أخلص من أبى بكر !

مخـــيرق : سأحارب فى جيشه طائعا ، ولئن قتلت لأوصين بمالى لمحمد ! !

حيي بن أخطب : ياللعار ! وددت أن يكون بى صمم ، فلا أسمع ، وعمى فلا أرى ! ويل لليهود من مخيرق ! !

كعب بن أسد : ماذا يقول الناس غدا ، وقد بلغهم هذا النبأ ، وماذا يفعل الأعراب من أهل البادية ، حين يسمعون أن الأحبار يتركون دينهم ليدخلوا فى دين محمد ؟ ! .

حيي بن أخطب : سأحارب محمدا ، فى داخل يثرب ، وفى خارج يثرب ، وأؤلف عليه الأحزاب ...

لبيد بن أعصم : سأنفث فى العقد ، وأعمل التعاويذ والسحر لمحمد ، وأشبه له ، حتى مايدرى أفعل الشىء أم لم يفعله ؟

عبدالله بن سلام : ان محمدا فى حفظ الله وعصمته ، ولن يخذله معكم ، وكما نجاه من المؤامرة

التى دبرها له أعداؤه فى مكة ، فتخلص ونجا ، سيعصمه الله فى يثرب، من شر ماتبيتون له ! .

ابن أبى الحفص : سأحرض القبائل المجاورة ، وأجمع طوائف اليهود ، فى خيبر ، وتيماء ، ووادى القرى ، وفدك ، لتقف صفا واحدا ، فى سبيل دعوة محمد !

عبدالله بن سلام : هيهات هيهات فإن الله سينصر دينه عليكم ، وعلى قريش جميعا

كعب بن أسد : « وفى يده سيف يحاول شج رأس عبد الله »

فنحاص : « يتدخل »

عفوا ياسيد بنى قريظة ! إنى أشيم نصرا لهذا الرجل فى المستقبل ، ألم تروا إلى مصعب بن عمير ؟

بعثه محمد ، وحيدا الى يثرب ، يعلم الأنصار الدين ويرشدهم الى طاعة الله ، فزار كل حى ، ودعا كل سامر ، حتى جعل فى كل بيت محرابا ، وبعث الى كل قلب ايمانا ، وأجرى على كل لسان قرآنا ؟ !

عبدالله بن سلام : انه الفتح ، وغدا سيغمر هذا النور المتألق ، الفجاج والبقاع ! .

شمويل : انى أسائل نفسى ، وأسائلكم وأعجب ! ان اليهودية لتجاور العرب منذ مئات السنين ، فما تهود منهم ، الا من نذرته أمه لليهودية ، ليعيش فى الحياة !

عزير : وهذا الدين على طرافته ، نراه قدأنزع مكة . وملأ حديثه الجزيرة وشغل الناس عن كل شىء حتى أصبح حديث اليوم ، وسمر الليالى .

عبدالله بن سلام : ذلك . لسهولة هذا الدين ، وسماحة محمد ، فالعربى لايحب الحد من حريته ، واليهودية إذا لاءمت أبناء يعقوب ، فانها لاتناسب مزاج العربى ، ولا توافق الحرية التى فطر عليها .

ابن أبى الحقيق : أتظن ياشمويل أن هجرة محمد إلى يثرب ، تنقل الزعامة ، من مكة ، إلى شمال الحجاز ؟

شمويل : بل تعطل رحلة الشتاء والصيف ، على قريش ، فسيكون بجهد سيد

الصحراء ، وسيقف جنده على طريق القوافل ، بين العراق والشام

« يدخل خادم (بعد استئذان) قاعة المؤتمر »

الخادم فى أدب : مولاى وسيدى حيي :

رأيت للساعة ، نساء وأطفالا ، مسرعين ، نحو الجنوب ، يذكرون قباء ، ويتأهبون لاستقبال قادم عظيم !

حيي بن أخطب : صحيح ؟ !

إن شيئا ثمة ، ينبغى أن نراه ، لينفض المجلس ، وإلى اللقاء فى غد .

الجميع : يخرجون والهم باد عليهم ، ويتأخر الحبران ، حتى يتفرق الجمع »

....

المنظر الثانى || فى طريق قباء ، وتحت أشعة الشمس الحارة وقف الحبران حائرين

مخيرق : « يخاطب صديقه عبد الله »

هيا ياعبد الله ، الى مصعب ، نسمع منه قرآنا ، ونستقبل عنده الرسول ، فى قباء !

عبدالله بن سلام : أوافق ! . ولكن ...

مخيرق : أتخاف على نفسك ، من بنى قينقاع قبيلتك ؟

عبدالله «ضاحكا» : لا ! ولكنى أعجب لأطفال الانصار كانوا يروون الكثير من شعر العصور ، فهجروه ، الى هذا القرآن ، ماتملون تلاوته وحفظه ؟ !

مخيرق : أو يكون للشعر قيمة ، اذا سمع البدوى ، هذا التنزيل الحكيم ؟

عبد الله : اذا سمعه العربى ، فانه يسجد له ، كما كانوا يسجدون للشعر ، بل سيحفظ ويدرس فى الجامع والمساجد ، ويكون حظه ، من الاجلال والتعظيم ، أكثر من المعلقات الشعرية ، التى كانت ، ولاتزال معلقة حول أستار الكعبة .

مخيرق : قد بطلت آية الشاعر ، وجاءت آية النبى ، سيعجز الشعراء والكهان

والمتنبئون عن التحدى ...

عبد الله : ان هذا الفرقان ، يغزو القلوب والعقول ، والمشاعر وسيتفانى العرب ، تحت رايته ، حتى يتم الفتح

مخيرق : ألا ليت شعرى ! هل أعيش ، حتى أرى انهزام الوثنية وتحطيم الأصنام ؟

عبد الله : سنعيش يامخيرق ، حتى نرى ذلك العربى ، يخلص العرب جميعا ، من ظلم فارس ، وجبروت الروم ، سنعيش ، حتى نرى هؤلاء المناذرة ، قد تحرروا من سيطرة كسرى ، على الحيرة ، وتسلط قيصر على الغساسنة فى الشام ، وتعود العرب أمة واحدة ! ....

مخيرق : إن هذا البطل لن يحرر العرب وحدهم ، بل سيحرر الانسانية كلها ، يحررها من الظلم والقهر ، ومن التسلط والاستعباد !

عبد الله : ها قد وصلنا الى قباء ! أرأيت ألى مصعب والأطفال عنده ، كيف يحفظهم القرآن ، ويتدارسونه ؟ !

« بعد وصولهما الى مصعب فى قباء »

مخيرق : حييت يامصعب ! وسلام الله عليك !

مصعب : حياك الله . وسلامه عليكم !

تفضلا !

مصعب : « أمامه صبية ، ومعها آيات من القرآن فى لخاف »

أحفظت آية النعيم ؟

الصبية : نعم ! .

أحد الحبرين : أتسمح لنا ، أن نسمع القرآن ، من هاته الصبية ؟

مصعب : حبا وكرامة ! !

الحبران : « يدخلان ، ويجلسان على فراش الحجرة فى خشوع »

مصعب : اقرئى ياأم كلثوم !

أم كلثوم : بسم الله الرحمن الرحيم :

« ياعباد ! لاخوف عليكم اليوم ، ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا ، وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة . أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة ، التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة ، منها تأكلون »

« صدق الله العظيم »

عبد الله : « يخاطب مصعبا »

لمن هذه الجنة ؟

مصعب : لمن يؤمن بالله ، ويصدق بمحمد ، ويعمل صالحا .

للرجال والنساء ، نعيم مقيم ، وخلد دائم ..

مخيرق : « ينظر الى صاحبه متأثرا »

عبد الله : أحقا ماسمعت ؟ وهل وصل النبي قباء ؟

مصعب : قد خرج النبي من مكة ، منذ أسبوع ، يوم الاثنين أول ربيع الأول وهانحن أولاء ، فى انتظاره ، منذ يومين !

مخيرق : أليس لديكم نبأ عن موعده ؟ . لقد سعينا من يثرب ، مستخفين ، لنحظى بلقائه ، ونسعد بيمنه وبركته ! ...

مصعب : لقد ظهرنا الى الحرة هذا اليوم ، نرتقب حضوره ، حتى غلبتنا الشمس ، فأكرهتنا على الرجوع !..

« فى نهاية هذا الحوار ، يدخل رجل يهودى »

الرجل اليهودى : يابنى الخزرج !

ان حظكم قد جاء ، فقد رأيت رجلين يمشيان وراحلتين يسوقهما رائد فى الحرة !

امرأة : فى ظاهر الحرة ؟

الجميع : « يخرجون ، ليستقبلوا النبى »

رجل : أرى رجلين ، يمشيان فى ظل نخلة !

غلام : لقد فارقا النخلة وانحسر عنهما الظل .

المرأة : أذاك أبو بكر ، أم محمد ؟

مصعب : انهما متقاربان فى السن ، متشابهان على البعد !.

رجل : أرى أحدهما ، يتقدم خطوة ، ويتأخر أخرى ، ليظلل صاحبه ، من شدة الحر .

مصعب : انه أبو بكر ، يخاف على صاحبه ، من وهج الشمس ، فيظلله بردائه

المرأة : وافرحتاه ! وافرحتاه محمد ! نبى الله

الحبران، معا، فى لهفة: أحقا تقولين يا امرأة ؟

المرأة : « لاتجيب »

تزغرد . يشرف الناس من بيوتهم »

الجمع وفيه الحبران. محمد — النبى ! يكبرون

أصوات : الله أكبر . الله أكبر

الأطفال : يتقدمون فرحين ، ومعهم الطبول وآلات الغناء .

أحدهم : هيا ننشد الأغانى بين يدى النبى

الجميع : هيا . . .

الطفل : يبدأ النشيد والاطفال يرددون معه ..

نشيد الهجرة(١)

اشرق بالأمانى يانجوم السحر
واهتفى بالتهانى ياطيور الشجر
وانفحى فى المغانى ياعيون الزهر
ها هنا . ها هنا . طلع الصباح
شارق رف فى الدجى حفه النور والجلال

---

(١) النشيد للأستاذ سعيد العريان

موكب الحق والهدى يتهادى على الرمال
يؤذن الكون . يؤذن الكون . بالصباح
اشرق بالأماني . . . . . .
. . . .
يا لركب على الفلاة خير ركب على سبيل
موكب الطهر والصلاة انه موكب الرسول
يؤذن الكون . يؤذن الكون . بالصباح
اشرق بالأماني . . . . . .
. . . .
. . . .

خلف القاضي
المدرس بالناصرية

الحلف الأعظم

للأستاذ محمود غنيم

القصيدة التى نالت الجائزة فى المباراة الشعرية

التى نظمتها الإذاعة اللاسلكية البريطانية سنة ١٩٤٣

قم سائل «الاطلنط» عن ميثاقه ... هل بات يطوى الحرب فى أعماقه
السلم هب من المحيط نسيمه ... فتفتحت رئتاى لاستنشاقه
عقدوا خناصرهم على خوض الوغى ... حتى يمد السلم ظل رواقه
قد تحسم الحرب الضروس بمثلها ... حسما . وبعض السلم من ترياقه
حلف وعاه بصدره التاريخ . بل ... نقشته ريشته على أحداقه
ما كان عند الخصم إلا صورة ... من نفخ «إسرافيل» فى أبواقه
وكأنه القدر المتاح له انبرى ... والدهر أقبل آخذا بخناقه
أمضته فى عرض المحيط ممالك ... تحكيه فيما امتد من آفاقه
من كل شعب باليقين مسلح ... قامت حضارته على أخلاقه
صبروا على حر الوغى.والنصر من ... يطلبه بالصبر الجميل يلاقه
لم يدخلوها طامعين وإنما ... هو باطل عملوا على إزهاقه

***

إن الذى سموه بحرا مظلما ... أمسى يغار النجم من إشراقه
وضعوا الحقوق على صحيفة موجه ... فتشبهوا بالبحر فى إغداقه
وضعوا القواعد والرسوم لعالم ... لا يشتكى حز القيود بساقه

حر العقيدة . كل خلق سالك		فيـــه محجته إلى خــلاقه
حــر المرافق حــرة أمواجه		لاحجر مضروب على أسواقه
وضع السلاح فلا شواظ به ولا		أسياف مصلتة على أعناقه
ضمن الضعيف حقوقه فيــه كما		أمن الفقير به على أرزاقه
لاينعم الانسان فيــه بزاده		وأخوه طاوى البطن من إملاقه
هــذا هو الجيل المثالى الذى		قد كان « أفلاطون » من عشاقه
تبا لجيل بالدماء مخضب		يشكو الطوى ويئن من أطواقه
قد كاد يرجع بالزمان القهقرى		ويعيد عهد خيامه ونياقه
أمم تبارت فى الدمار كأنه		مضمار فخــر وهى خيــل سباقه

***

لله قوم يخطبون النصر ما		ضنت نفوسهمو ببذل صــداقه
الشرق من خدع السياسة مشفق		قولوا له : لايغل فى اشــفاقه
الحق عــلم غاصبيه بعــدما		عانوه أن يسعوا إلى احقاقه
والحرب قد أرت الضعيف بعينه		إرهاق من عمــلوا على إرهاقه
صارت شعوب الأرض شعبا واحدا		من يبك منه بكى بدمع رفاقه
إن الألى كلفوا بالاستعمار قد		باتوا وهم يشكون من إخفاقه
ماضاق بالناس الفضاء وإنمــا		هم ضيقوه على اتساع نطاقه
ولد ابن آدم وهو حر مطلق		شلت يد عملت على استرقاقه

محمود غنيم

فهرست

العدد الرابع من السنة التاسعة